رواية

اعترافاتٌ نفسية

الكاتب

محمود عبد الستار

إهداء

أهْدِي رِوايَتي..

إلى مَن أحبُّهم؛ لأنَّهم عمّروا الأرض.. إلى المُنتجين, إلى البشر جميعًا؛ فليس هناك إنسان لا يُنتِج، فمَن لا ينتج يموتُ جوعًا.

إلى كلِّ البَشر, ولا أستثني المَعُولين؛ فغدًا سيصيرونَ عائلين.

كَلامٌ يَجِبُ أنْ يُقال

كَلِمَةٌ لِمَنْ رَحَلوا

لَوْ لَمْ تَرْحَلُوا لأبْعَدَكُمْ عَنْ حَيَاتِي عَامِلُ النَّظَافَة.

****

كلمة إلى زوجتي المستقبلية, وابني المستقبلي:

يا حبيبتي, ارفعي من شأني؛ فزوجة الأمير أميرة.

يا بني, لا أريدك أنْ تنظر فوقَك فترى النجوم؛ بل أريد أنْ تنظرَ النجومُ فوقها فتراك. لا أريدك أن تصيرَ نَجمًا؛ بل أريد النجمَ يتمنَّى أن يكون أنت. كنْ كريمًا في كلِّ شيءٍ باستثناء وقتك؛ فقيمةُ المرءِ في قيمةِ وقته. كنْ حذرًا؛ فعلى هذا الكوكب المتحرِّك لا يوجد شيء ثابت, حتَّى الأشخاص والمشاعر.

مقدِّمة

المرأة لغزٌ لا يعنيني حلُّه؛ إنني إنِ انتقدتُ المرأة وأنا لا أعرفها لضحكوا مستهزئين، قائلين: إنَّه ينتقد ما لا يعرفه. ولو انتقدتها وأنا أعرفها لقالوا: لا شكّ في أنَّه خُدع من امرأة. ولو قلت لهم: إني لم أُخدَع من امرأة, لقالوا– مُهاجمين–: أتنتقد المرأةَ دون أن يحدُث منها ما يسيئ إليها؟! إنَّ هذا جوهرُ الافتراء. على كلِّ حال, سواء حدثَ من المرأة ما يسيئ إليها أو لم يحدثْ لا تنتقدِ المرأة لأنك حينها أنتَ الخاسر.

إنّ المرأة هي مَن تستطيع تجميلَ حياة الرجل أو تقبيحها, لا أنكر أنَّ المسئول الأول عن جمالِ حياة الشخص هو ذاتُه, لكنَّ شريكَه يساعده ويقوِّيه, فيجعل حياته أكثرَ جمالًا, كما أنه قد يجعل أيامَه أكثرَ قبحًا. ولمّا كانتِ الرواية تتحدَّث عن أشخاص غير سويّين حيث تكلمتُ فيها عن الرجل غير السوي, وكذلك المرأة غير السويّة, فعندما تُذكَر المرأة بسوء في روايتي فأنا بكلِّ تأكيد أقصد غيرَ السويّات, أمّا عن النساء فهنَّ الجميلات المجمِّلات للحياة, لكن ليس كلهن؛ فالخيانة قبيحةٌ للغاية, وبقدر فيضان الحبِّ من الطرف الوفي يفيض القلبُ ألمًا, وأما الخيانة فتحدُث من الرجل والمرأة على السواء, فالخيانة لن أصنفَها بأنَّها طبيعة إنسانية؛ بل هي طبيعة وجودية. كما أنَّ الوعي ليس هو اللعنةَ الحقيقية؛ بل الوجود, فكلُّ الكائنات تتألم. ولمّا كان الإنسان أنانيًّا بطبعه فإننا نجده يلعنُ ما يخصُّه, على كلِّ حال كلُّ الأنوار لها ظلٌّ, فالوعي له ظلٌّ على ذلك.

محمود عبد الستار

بوحُ عقل

تزاحمتِ التفاصيل بصدْري أمامَ التدوين بما كان فيه, ومازال عليه, من تفاصيل لننثر الشتات, وعلى الله الإنبات. وبعد, فصباحُ الخير أيها العالم, رفقًا بأهلك.. رفقًا بالفقراء والجوعى والحيْرى والمرضى والعطشى والعاشقين؛ فجميعهم مُبتلوْن بالحرمان. صباح الخير– رغمَ الليل– على كلِّ الحيارى والتائهين, المنكسرة قلوبُهم, اللهُ هو نوركم الحقيقي على انطفائكم. تشرق الشمسُ بأمر الله فيعمُّ النور, والآن حانَ وقتُ البوح.. أعترف أنا الدكتور جلال بن محمد, المتخصِّص في الطب النفسي أنني لا أقلُّ مرضًا عنِ المرضى الذين أعالجهم, فكلُّنا مرضى بنسَبٍ متفاوتة, والمستشفى النفسي ما هو إلّا جزءٌ صغير من عالمٍ كبير اسمه الحياة, ومَن ينْجُ مِن مرضٍ ظاهر لا بدّ أنَّه ابتُلي بمرض خفي, وحتى المرض الذي نجا منه ما هو إلّا مرضٌ خامل يمكن استثارته.

كما لا يوجد إنسان مهذَّب وإنسانٌ غير مهذب بالمعنى الحقيقي, فالإنسان بلا مبدأ, أو إنه لا يصير صاحبَ مبدأ إلّا تحت ظروف معيَّنة, فلو تغيرت الظروفُ لتغيَّر المبدأ. ولو وضع الإنسانُ تحت ضغوطٍ سيتقبَّل أشياء كان يرفضها, فالبشر مرضى بلا مبادئ, وعنصريّون بطبعهم, حتى مَن يقول إنَّه لا فرق بين أبيض وأسود ليُظهرَ أنه غيرُ عنصري, وأنه محايد, هو بذلك عَنصَر البشرَ إلى أبيض وأسود, ولو كان غيرَ عنصري لقال لا فرقَ بين البشر.

وفي رأيي أنَّ الخلاص من كلِّ ذلك يكون في معالجة الروح, ورقيِّ الوعي, فعندما نعالج الروح– وهي الجوهر– سيختفي العرَض وهو الأثرُ المادي. إنَّ العقل ماضٍ يلتهمُ المستقبل فيجعله حاضرًا, ومن ثمَّ لا يجعلك تعيشُ اللحظة؛ فتصرفاتُه مَبْنية على الذاكرة والخبرات السابقة, فالحاضر يتصرَّف فيه بتصرفٍ محكوم عليه مُسْبقًا, ثمَّ لا يلبثُ أن يصير ماضيًا, ويصير خبرة, لوْ أضافَ جديدًا فيحكم على ما هو مثله أو ما شابهه. هكذا يعيش العقلُ في الماضي المستمرِّ فنمرَض نفسيًّا؛ بسبب أنَّ فكرة الإحباط والكآبة صارتْ على قوانين العقل الماضي المستمرِّ,

والحلُّ والخلاص هو الخروجُ مِن هذه البوتقة, والرصد بدون حُكم مُسْبق, فقط تختبر الحدثَ كأنه جديد, فبالتالي ستكتشف أنَّ الأشخاص أشياء جديدة, وتتعلم أشياء جديدة, كما أن لكلِّ شيء إيجابياته وسلبياته.

الكون مبنيٌّ على الازدواجية, فالعقل أخذَ في حلِّ المشاكل حتَّى صار هو مَن يبتكر المشاكل ويفترضها ليحلَّها, والطعام يفيد الجسمَ في أشياء ويضرُّه في أشياء, بل الحياة نفسها بقاء وفناء, والذاكرة تفيد النفسَ في البناء, وتهدمها في نفس الوقت, فتكون أهدافًا وتكون معلوماتٍ فتصل, وتكون أحداثًا سلبية وتشعرُ بنتائجها, وتستمرُّ النتائج فتتوقف عمليةُ البناء, ويُصاب الإنسان بالإحباط والكآبة، والحلُّ هو تقبلُ هذه الازدواجية, وإدراك أنَّ الخير فيما يحدث لنا، فلكي تحلَّ مشكلةً يجب أن تعرف سبَبها كي تستطيع حلَّها حلًّا صحيحًا.

مزدوجة هي الحياة كالورد يزيّن طوقَ عروسة, ويكلل القبر.

إنَّ الظلم يولِّد الطاعة, لكنَّه أحيانًا يولد الثورة. الكفر, السخط, الحنق, هذا بعضُ ما ربَّاه فيَّ الفقر والظلم واحتقار الغير؛ فأنا ابنُ الأب التَّعيس الفقير الديكتاتور, ابن الأمِّ التعيسة المظلومة المُضحِّية المقهورة.

لقد بدأت قصةُ حبِّهما عندما توفِّيَ أبوها, وتزوَّجت أمها, فأخذتها عمتُها هي وأخواتها البنات لترعاهنَّ, وقد كانت عمتُها جارةً لأبي, حينها كان شابًّا ماهرًا في لعب كرة القدم, وكان دائمًا ما يلعب أمامَ منزله في الشارع فتراه أمي, ومن هنا أعجبت به, ودَعتِ الله أن يكون من نصيبها, وليتها ما دعتْ ولا أخذت بأسبابِ هلاكها؛ فالله يدعم عبدَه, ولعبده الاختيار, فيعطي الطاقة للشِّرير المُصرّ على الشَّر ليفعله, ويعطي الطاقةَ للخيِّر المصرِّ على الخير ليفعله, ثمَّ في الآخرة حساب.. سامحكِ اللهُ يا أمي.

تعرفت أمِّي زينب على دعاء, أخت محمد, الذي سيجعله القدرُ أبي. فعندما بلغ محمد سنَّ السابعة والعشرين وأرادَ أن يتزوج رشّحت له عمتي دعاء زينب؛ لأنها شعرت بحبِّها تجاهه, وبالفعل تزوَّجها في بيت مكوَّن من غرفتيْن ومطبخ ودور خلاء, وأنجبت زينب أخي الأكبرَ

خالد, وجلال الذي كان يطمح بأن ينقذَ أسرته من وحْل الفقر, والذي كنت أتمنَّى له أن ينجحَ ولا يكون مثل خالد الذي عملَ منذُ صغره صبي ميكانيكي سيارات, وأخذ يعمل إلى أن بلغ الثلاثين. كما أخذَ يساعدني حتى وصلتُ لما أنا عليه, وصرت أنادَى بالدكتور جلال, لكنَّه ليس سعيدًا في ذات الوقت رغمَ أنه يساعدني؛ فهو حزينٌ لأنني متعلمٌ وهو غيرُ متعلم, ولأنني وصلت لدرجةٍ علمية عالية وهوَ في الثلاثين يعملُ منذ عشرين سنة ولم يستطع أن يصنع شيئًا لنفسه, لم يستطعْ حتى أن يُزوّج نفسه.

مشكلةُ بيتنا أنَّ كلَّ واحد يعتبر نفسَه الضحية؛ فالأب يعتبر نفسَه ضحية أهله, والأم تعتبر نفسَها ضحية الزوج, والأخ الأكبر يعتبر نفسَه ضحيةَ أبيه وأخيه.. فالمشكلة حلقةٌ متصلة ببعضها, أما أنا فلا أعتبرُ نفسي ضحية لأحدٍ.

يقولون إنَّ العالم بشع؛ لذلك كان من الطبيعي أن يكون نتاجُه البشاعة, أما أنا فأعيشُ في العالم البَشع لكني لستُ بشعًا, لأنَّ طبيعتي الابتهاج والسرور, فأنا لي عالمي الخاص, ولا أكره أحدًا كما يكره أخي خالدٌ الجميع, وخاصَّة أبي فهو بعيدٌ عنه, ويكرهه كلَّ الكره؛ لأنه في نظره مريضٌ نفسي, ما كان له أنْ يتزوج؛ فالزواج مسئولية والإنجاب مسئولية أخرى, وبعض البشر لا يستطيعون القيام بمهام المسئولية الأولى– الزواج–, وأغلبُ البشر ليسوا أكفاء للمسئولية الثانية– الإنجاب–. الحمدُ لله الذي لم يهبْ أمي بنتًا لأنَّها كانت ستموت جوعًا, أو تموت منتحرة من ضنكِ العيش, فليس لها مكانٌ في بيتنا الصغير الذي لا يمتلك فيه الفرد أدنى حقوق الخصوصية, لدرجة أنَّ الغرف ليس لها أبواب, فقط موضوعٌ على مدخل كلِّ غرفة قطعةٌ طويلة من القماش, وملابسنا التي نرتديها من التبرُّعات. أتذكر إحراجَ أصدقائي لي عندما كانوا يقولون لي لماذا ترتدي ملابسَ واسعة! وأتذكر قولَ الأحمق عندما قالي لي ذاتَ مرَّة وهو يضحك, ويشعر بخفةِ دمه: أنتَ لست من مستوانا. لم أشعر بنفسي– حينها– إلّا بعد أن جعلت وجهه ينزفُ دمًا, لقد كنت حريصًا على مذاكرتي, فليس من المعقول أن يجتمع الفقر وضعف المستوى الدراسي؛ خيبة واحدة تكفي. لكنِ انْتبه فنحنُ نعيش في مجتمع متخلِّف, يغيظهم حبُّك للتعلم, يزعجُهم اطِّلاعك, تخيفهم ثقافتُك, تغضبهم الحقيقة. سأقول لك الحقيقة لكنِ انْتبه؛ الحقيقة نارٌ

تحرق الوهمَ وتلتهمُه, قول الحق ليس مرًّا فحسب؛ بل هو موجِعٌ مخيف مُفْزع, نار ترهب الناسَ في الدنيا كما ترهبهم نار الآخرة.

لقد كان أبي يضربني عندما يعلم أني شرحتُ لأصدقائي درسًا لا يفهمونه, بحجَّة أنه سيصير مستواهم أعلى منّي لو فعلت ذلك؛ فالحقد والغيرة مرضٌ إنساني, كلُّنا مرضى به لكن بطرق مختلفة, وكلُّنا نشترك في نفْس المشاعر لكنْ لأشخاص مختلفة, وكلُّنا مرضى لكن منّا المرضى بشكلٍ مباشر, والمرضى بشكلٍ غير مباشر.. ولقد كان أبي مريضًا بشكلٍ مباشر؛ وهو سببُ انتحار أخي خالد, فقد اقترض أخي خالد ليتزوَّج بسبب عدمِ مساعدة أبي له في تكاليف الزواج. تزوَّج حبيبته هاجر, والتي لا أعرف كيف أحبَّته وتزوجته! فقد كانت موظفةً ومتعلِّمة وهو غير متعلِّم, لكن يبدو أنها شعرتْ بمعاناته منّا, وحبِّه الصادق تجاهها، وسأحكي لكم قصتَهما على لسانه.

يقول خالد– وهو يروي قصته–: لقد كانتِ النظراتُ كموج البحر العائد, تأخذني إلى الأعماق بعيدًا, ثم تدفعني بكلِّ قوة تجاهَ هاجر، أنا الذي كان يتقي الحبَّ بكل ما أوتي من حواجز, ويمنع نفسَه بدافع الخوف منه، لكنَّ هذا الشعور قد يكون أو لا يكون ترجمةً لرغبة كبيرة ونهَمٍ للسَّلام والسكن. الحبُّ لغة معقَّدة, وتساؤلات كثيرة لا تنتهي. بالنهاية لا أدري متى ولا كيف كان الأمر! لكنَّها في القلب الآن, وبقوة.

أتخيل نفسي كثيرًا أخاطبها كأنها أمامي وتسمعني أقول لها.. أنتَ يا هاجر آخرُ مَن تكونين بالخاطر قبلَ النوم, وأوَّله عندَ الصحو, وسائر اليوم بين تفاصيله. تركتك بيني وبين مَن يعلم السرَّ وأخفى, وبقيتِ سرًّا تبيتينَ بضلوعي, تستقين من روحي وتسكنينَ فكْري. ولعجز وصلك تملَّكني الأرق, ما عدت أستطيع النوم, ما عدت أرغب الحياةَ إلّا معك، ما عدت أشتهي شيئًا سواك, وما عدت أرغبُ الطعام اللهمَّ إلّا شيئًا يسيرًا يُبقيني حيًّا, أتناوله على غير رغبةٍ فيه، قلبي يريدك.. عقلي يريدك.. روحي تريدك.. وجسدي يريدك فيما أحلَّ الله, أهواك لا أدري ما أهوى بك, ولست أدري ما معنى الهوى قبلَ لقائك والله.

أنا لستُ كاملًا يا هاجر, وأنتِ لست كاملة, لكنَّ الله كمّلك في عيني, طبتِ وطابَ قلبك يا هاجر, ولستُ أملك مِن قلبك شيئًا.. كلّي رجاءٌ بكَ يا الله ألّا تحرمني منها أبدًا.

العشقُ وحرمانُ الوصل، أظنُّ أنهما المعنى الحقيقي والأقوى بما أشعر, أغلقت أبوابَ قلبي عليك فلا دخولَ لأحد, ولا رحيل لكِ, يرحم اللهُ المحبّين, الإفصاحُ في يومٍ من الأيام بما يكنُّه القلب لها أشبهُ برفِّ عملةٍ نقدية في الهواء على أحد، وجهُها النعيمُ وما حوى.. وعلى الوجه الآخر كلُّ عذابات العالم مجتمعة. أتتبَّعها كلَّ يوم, أسيرُ خلفها, مطر.. مطر.. مطر. إنَّها تمطر الآن بالخارج, وأنا أتيت للتوِ من الخارج وقدْ تساقطت عليّ بعضُ قطرات المطر, رحمةٌ من الله بحقٍّ, يهبطُ بأمره وحده, يأتي بالسكينة منه, يهبط باردًا حنانًا من الله على قلبي المحترق، وما باله الضبابُ بالأجواء يكون بانطفاءِ الحرائق, والجمر بصدورنا, وارتفاع الدخان منها إلى السماء فتكون ربما سحابًا, أو تسيل ندًى, أو تصير قطرًا, أو نبعَ ماء.

المشاكلُ في سمائي ملبَّدة, والهموم كسحب سوداء وكأنها قلبي المحترق شوقًا، تتساقط قطراتٌ من المطر الحائر يحرّكها الهواءُ مداعبًا وجوهَ العابرين فيتحركون بدوْرهم هروبًا منها, بينما أنا في اشتياق لها.

أتمطرُ فترحَم؟ أم تمنعها الكآبةُ على وجهها فلا تمطر, لم تمطر السماء إلّا قطرات حيرى, ثمَّ يعبرُ خيطُ الشمس الحريري الغيمَ مبددًا الظلمة, وحاملًا معه الأمل, مقسِّمًا به ظلمة السماء إلى سبعةِ ألوان من الحُسن. تأمَّلت الماءَ بعد المطر, تكشف الشمس حينها كآبةَ الغيم, وتبدِّده تبدُّدَ الظلمة في قلبي, وتكشف الكآبةَ عن وجهي, وتبعث نورًا من الأمل يتجدَّد في صدري. تتصاعد ذراتُ التراب التي لانْسجامها رائحةٌ تُشعِر بالراحة والسكينة والسلام, يرحم اللهُ قلبي لينام ليلي, وليعمَّ قلبي السلام, وفي الغدِ سأعترف لها بحبي.

ابيضّ الليلُ فصار نهارًا، ورأيتها اليومَ عند تمام الثامنة, دقت الساعةُ دقَّتين, ودقَّ القلب ساعة. كانت السماءُ والدنيا مُضاءة, لكنَّ الليل لا يزال قائمًا بصدري, كانت اللهفة قناعَ ملامحي, والسعادةُ تفيض منّي رغمَ سعة داخلي وما يحتويه, والشمس ترتفع كلَّما اقتربت منها فتضيء

صدري. أغلقُ عيني بجفوني, لا أعلم أهو من الخجل المُعتاد, أم من نورها الصافي كأنَّها العيدُ وأنا كصبيٍّ يفرح كلَّما اقترب؟!

ولمّا ذهبتُ لأعترف لها بحبي جفَّ حلقي, واحمرّ وجهي, وجرى الدمُ في عروقي. نظرتُ إليها فوجدتها تصنَّعت عدمَ رؤيتي, ومرَّت دون أن تلتفت, كانت على بُعد أمتار بالقرب منّي, وظلت تمشي مشيتَها البطيئة, وظللت أرفعُ قدمي من الأرض, وتحرَّكَ جسدي خلفها يمشي حتى تجرَّأتُ وأوقفتها, فكانت كشمسٍ وليل لا يجتمعان إلّا ويلبث الليلُ أن يتبعْثر! مُحيَ ليلُ قلبي.. وللَحظاتٍ جفَّ اللعاب, وبُحَّ الصوت, ووقفت كلُّ الأحاديث والحكايات في حلقي حتَّى تغلبت على نفسي, فتلفَّظت قائلًا:

أودُّ أن أتحدث معك.

هاجر: ألن تكفَّ عنِ السَّير خلفي؟

خالد: وددتُ لو كان السيرُ بجوارك, إنَّني أبحث عنكِ طوالَ الوقت والساعات, وأنتظرك كلَّ يوم على رؤوس الطرقات, ومن الليل حتَّى الصباح, وتريدين أن أتركِكِ عندما أراك؟ هائمٌ أنا بك, أحبُّك حدَّ الشرك, حتَّى يسخط المجتمع, حتَّى يغضب رجالُ الدين, حتَّى يغير الإله[1]! أحبك للأبد, ولا أساوي بك أحدًا, أفنَى فيك, وأفنى بدونك إلّا أنّ الفناء فيكِ فناءٌ حلو كأنَّما حرب الكرة مُشتعلة وأنا أعانقك بينَ القذائف, وليس لي في هذه الحياة رغبةٌ غير السيْر بصحبتك، أنا في طريقٍ أنتِ أولُه وأنت آخره, وأنت ذاتُه, وقلبي بذكرك يطيب, وكلُّ مرٍّ بالحياة يصير حلوًا لو ذاقَ قلبي ذكرَك, وقلبي يسرُّ بذكرك, فما بالُك بكِ, بداخلي عالمٌ أجعله يسعُك, وبداخلي كون ألم يسعك عالمك. في غيابك أسيرُ في الطرقات مُطرقَ الرأس, أرفعُ رأسي إلى السماء ولا أتحدث من ثقلِ ما يلمُّ بي, أرفع عينيَّ ولا أستطيع نطقًا كأنها تخبر الله بكلِّ شيء, وكأنها تقول.. بحقِّك يا الله لا تُعِذْني إلى كسرتي وانكساري, بحقِّكَ يا مَن تعلم ما تنطقه العيون, وليس لها حديثٌ.. بحقِّك لا تحمِّلني ما لا طاقة لي به, يا الله هناك شيءٌ واحد أهمُّ منّي, وهي عندي أهمُّ شيء.

[1] - الله لا يغير بهذه الكيفية, ولكن اللفظ مجازي.

اسألي الوسادةَ عن اشتياقي ودموعي, كيف أخفتْ كلَّ الدموع ووارتها، كيف حوتْ بحرًا ولا يبدو عليها إلَّا ندَى رزق الله الأوْسَع, قد جمعه اللهُ لي بحبِّك المكنون في قلبي, فكأنَّك وحدك النعيمُ وما دونَك جحيم، أليس في العالم إلّا أنت؟ أم أنَّك صرتِ عالمي؟ عيناك وبشرتك البيضاء في ثوبِك الأسود يبدوانِ كثوبِ الليل، يظهر وجه القمر كزهرةٍ, صرتُ أتمنى أن أقطفَ لأمنح البسمةَ لثغْر حسناء.

ابتسمتْ هاجر, ثمَّ سارت مسرعة، وعادَ هو الآخر إلى عمله قائلًا: لقد كان الطريق طويلًا وأنا أسيرُ وراءها, فما باله عندما اعترفتُ لها بحبي قد قصُر!

ذهبت هاجر إلى بيتها, وكلُّ فكرها معه, وقلبها معه, وروحها معه. قالت لنفسها لا أريد أن أعتاده, ولا أريد أن يكون حبي له عاديًّا, لقد كاد الناظرُ يلاحظ, وكاد هو الآخر يرى انتفاضة يدي, وارتعاشها كورقةِ النسيم. لقد كنتُ كالشجرة الثابتة جذعها, لكن النسيم يحرِّك أطرافها يمنة ويسْرة, لا أريد لتلك الرجفة أن تذهب, أحبُّ تزلزلي في حضوره, أحبُّ تلعثمي وانعقادَ لساني أمامه, أحبُّ ارتباكي وأنا أنظر إليه بعيني, فلا تكاد عيني تستقرُّ حتى يأخذها الارتباك ويشيح بعيدًا أحيانًا، أخافُ من القرب, أخافُ من تلك الأشياء الحلوة التي قد أعتادها, أخاف أن تصبح أمورًا عادية فتتحوَّل الفرحةُ إلى رتابة الحياة التي أعتادها.. شيء عادي يصير كأيِّ شيء يصير في يومي. قلبي الذي كان يدقُّ في الثانية عشرَ مراتٍ أريده أنْ يدق أكثرَ وأكثر, أريد أن أحبَّه أكثر وأكثر.

تقدَّم خالد لخطبتها لمّا تأكد من أنها تبادله نفسَ المشاعر, فقد أفصحتِ ابتسامتُها ورعشة يدها ونظراتُها عن حبها, كعربات القطار يريد أن يتركب أجزاؤه فيها, يشتهي أن يرتطم بها حتى لو كانَا سيتحطمان, فقط ليعانقها. سارع إلى خطبتها؛ فهو يخشى أن تجبرها أحكامُ الطرق والقطارات بالتعلق بغيره, لكن للأسف في مجتمعنا الحبُّ شيء والزواج شيء آلآخر, فالزواج عندنا هو نهاية الحبِّ رغمَ أنه من المفترض أن يكون بدايةَ الحب، فبعد أن تزوَّجها خالد صارت تخجلُ من وظيفته وتتعبُ في تنظيف ملابسه, وكرهت أن تقولَ زوجي ميكانيكي سيارات,

فأشارت عليه بتركِ العمل, وأنَّ مرتبَها سيكفيهما, ومن شدة حبِّه لها أطاعها؛ فكان في ذلك هلاكُه, رغم أنه هناك فرقٌ بين الحب والطاعة، لكن للأسف مجتمعنا أيضًا لا يفرق, ومن المفترض أنها أخذته على ذلك الوضع فتقبله دائمًا عليه, ولا تجبره على تغييره, وهذا لا يمنع أنها كانت سندًا له, لقد كان أخي يقول لها دائمًا: الناس مشغولون بالدنيا, وأنا شغلي كله أنت, وجودُك كساعدٍ يشدني, وروح تدعمني على ما ابتليت به في هذه الحياة، فكلما أشعر أني أتهاوى أهمُّ بإمساكِ ساعدك لأبقى قويًّا أمامَ هذه الحياة, وحدك ستشعرين بضعف قواي من بينهم؛ لأني أستندُ بك, أمّا أمامهم فلا أبدو إلّا قويًّا رغمَ الضعف الذي يبدو أمامك.

وعلى سبيل الضعف صار أخي يساعدها حبًّا في أعمالِ المنزل بما أنها تأتي مرهقة وهو لا يعمل.. ثمَّ تدرَّج الأمرُ إلى أن صار يقوم بعمل المنزل بمفردِه, ثمَّ تتطور الأمرُ إلّا أنها صارت تتشاجرُ معه لو قصَّر في عمل المنزل!

بخَّرَ الشجار الحبَّ, وأيقظ نارَ الغضب, وصار ما يفعله عن حبٍّ يفعله عن كُره, فقال لنفسه ضاعتْ رجولتي, وذهبتْ قوامتي, صرتُ أنا المرأة وهي الرجل, أنا لست رجلًا, لست كباقي الرجال, أبحثُ بين كلماتِك عن سرٍّ مخبَّأ رغم أنَّك لا تخفين شيئًا، أبحثُ عن كلمات الحب كأنَّ النظرَ إلى عينيْك كفعلِ موْج البحر, أخذني إلى الأعماق بعيدًا, ثمَّ نفضني بكلِّ قوة تجاهك حتى ارتطمت, ما ظننتُك صخرًا هكذا.

عادتْ هاجر من عملها كعادتها فوجدتِ البيتَ غيرَ منظَّم, والأطباقَ غيرَ مغسولة, فتشاجرت معه, فأخرج شحنةَ الغضب التي بداخله وطلَّقها. الصباحاتُ ناقصة؛ فالصباح كان لا يكتمل إلّا بك، هاجر. تشبَّعت ملامحُه بالحزن, فلا ينطق كالمعتاد قولًا, ولا يعانقُ كالمعتاد نومًا, ولا عاد يعرف طعم النوم ولا المرقد. يقول خالد: دمَّرتُ قلبي بيدي, كلما ظننت أنني نجوت من الغرق أجدُ نفسي أغرق مرةً أخرى, وكلّما تضيقُ بي الدنيا وينطبق صدري على قلبي, وبعدها أظنُّ أنكِ لست بداخلي, وأنَّ قلبي لم يعدْ يعرفك؛ إذْ بي أستيقظ على صوتٍ شديد وكأني كنتُ صمًّا لا

أسمع, وكأنني كموجٍ يرتطم بالصخر, والصخرُ لا يبالي رغمَ اهتياج الموج, وشدَّةِ اندفاعه إلى الصخر, إلّا أنَّ الصخر لا يشعر وكأنه اعتاد.

لكنِّي أحلم بأن يصيرَ الصخر ترابًا, حينها سيشعر بالموج, ومن العجيبِ أني في بُعدك أجدُك, وفي قربك أخسرُك! أعانق بعنقي بعمق كلَّ ما لمستْه يداك في بيتنا, تأخذني الذاكرة إليها بسرعتها, تعبر ملامحها الهواء فتذكِّرني بغيابِ صوت أنفاسك, وعبق المكان المختلط بزفيرك المُختلط برائحتك. أحبُّك بقدْر حبِّ مُحبي الدنيا, أبحث بين كلماتك عندما أتذكره عن ابتسامةٍ, أفرحُ بكلِّ شيء يتعلق بك, كلُّ أعضائي تضحكُ لضحكك, كلُّ أنواري تنطفئ, وستائري تنسدل لفِراقنا, العالمُ يظلم حزنًا في صدري من أجلك, وسلام على عينيَّ اللتيْن أحدبتا لسنوات, وفاضت كالسيْل لدموعِ عينك.. تبًّا لحياة أنت لستِ فيها. ميولٌ كبيرة لتعاطي المخدرات, وميول أكبرُ للانتحار.. لكن هل المخدرات حلٌّ؟ لا, بل نوعٌ من السلام المؤقَّت غير الحقيقي، هل الانتحار حلٌّ؟ لا, بل عذابٌ أبدي, ولا يعرف السلام من أيِّ طرق.

الهروبُ إلى مكانٍ ما, هكذا يبدو السلامُ في صورته المثلى عند الكثيرين, لكنّي وجدت الهروبَ ما هو إلا تغييرٌ لما تراه الأعين حولنا, يظلُّ القلب يتلوَّن شقاء, وإنْ جاب العالمَ الحل، هو الزواج.. سأنسى أنْ تزوَّجت, فأنا مكتئب, ولو كان ما قبل ذلك اكتئابًا فما أصبحتُ عليه اليوم نزعات وسكرات! أصبحتِ الأيام الآن أسوأ من أسوأ يومٍ مرَّ في حياتي السوداء, ولا فرق بين كليْهما إلّا كالفرقِ بين الليل الحالك والليلِ ذاته بقلب حوتٍ في الأطلنطي.

أتأمل الفراغ, مشهد بانورامي كبير لفراغ, نعم.. لفراغ اللاشيء, لفراغٍ من الذات, من الأحلام, من النجاحات, من المشاعر الدافئة, من الأنس والصاحبة, من الزوجة, من الحياة كما فطرت! وكلُّ ذلك يُشعرني بالملل ليُعاد المشهدُ مرةً أخرى, مشهد بانورامي كبير.. لماذا؟ لفراغ.. فراغ كبير.

اقترضَ مرةً أخرى ليتزوج, ولكنْ في هذه المرة كان زواجُه زواجًا عن غير حب, فأخذ يقارن بينها وبينَ هاجر في نظافتها وأخلاقها وجَمالها, بل أخذ يقارن حبَّه لها بحبِّه لهاجر. لم يستطع هذه المرة تسديدَ القرض, ففي المرة الأولى كانت تساعدُه هاجر, أمّا في هذه المرَّة لم يساعده أحد,

ضاقتْ عليه الدنيا, شعرَ أنَّ قلبه صار مقبرة لمَن يحبُّهم, كلهم رحلوا.. كلهم ماتوا بداخله، لوِ اعتصروا قلبَه سينزفُ ألمًا لا دمًا, ففي كلِّ ليلة يجمع المسكينُ شتاتَ خيباته, يصرخ متألمًا بكلامٍ غير مفهوم, كلام الوجع هو, الآه لم تعدْ كافية, فامتزجت بأحرفِ غيرها, أو بمعنى أدقّ بوجعٍ أعمق، ثمَّ ينخفض صوتُه قهرًا قائلًا: لا قيمةَ لحبِّك عندهم أيُّها التعيس, بل لا قيمة لك أنتَ وحبِّك على السواء.

يحاول الوقوفَ على قدميه من جديد, يحاول أن يستمدَّ طاقته من ذاته, لكنْ من أي شيء يستمدُّها.. من روحه الهشة؟ أم مِن قلبه المحطَّم؟ أم من جسده الذي سمن؟ هشٌّ أنتَ أمام العالم, فلا عدتَ قادرًا على أخذ نفَس حبٍّ لروحك, ولا نفَس هواءٍ لجسدك, تختنق.. تتمزَّق.. يختم طيرانك بهبوط، يختم فرحك بحزن. القلبُ ينبض موتًا, فقط ينتظرُ أن يتلفَ روحه كليًّا فيموت, كأنَّما حربُ الكرة مشتعلة, وأحرقت قلبَه قذيفةٌ من القذائف.

أين الحقيقة؟ الحقيقة في ساعة تدرك فيها معنى الحياة فتحبُّ بكلِّ ما أوتيت من قوة, وساعة تدركُ فيها وهمَ المعنى فتشمئزُّ من الحب، ساعة تدرك فيها قيمتَك كإنسان حيٍّ فتفرح وتتفاءل، وساعة تبصرُ فيها موضعَ نفْسِك وحجمَك الحقيقي في هذا, لن أقول الكونَ الكبير؛ بل في هذا الكوكب الصغير الذي يدهَس فيه الضَّعيف. ساعة تصرخُ فيها في وجْه العالم قائلًا: أنا هنا، وساعة تصرخُ فيها قهرًا.. ألمًا.. وجعًا واستنزافًا. ثمَّ صعدَ فوق سطح المنزل فقال: سبحانَه أعزَّ فلانًا بحياة, وأذلَّ فلانًا بموت, وأذلَّ فلانًا بحياة, وأعزَّ فلانًا بموت. فاللهمَّ أعزَّني بالموت فقد أذلَّتني الحياة, سأصنع إخلاءَ طرفٍ من كلِّ حبٍّ وهْمي, من كلِّ صداقة زائفة, من الحياة تمامًا، سيزول النورُ وتسودُ الظلمة. اكتشفت مؤخرًا أنّي بالنسبة لهم أضحوكة، سأذهب إلى العدم حيث عدمُ الفاقة, إذْ أنَّ الوجود مرتبطٌ بالحاجة. قالها ثمَّ ألقى بنفسه من فوق سطح المنزل!

ماتتْ أمي حزنًا, وأخذ أبي في البكاء, لأوَّل مرةٍ أرى دموعَ هذا الجبار دموع الوحش، أما أنا فتخطَّيت الموقفَ وأكملتُ دراستي, اجتهدتُ وتخصَّصت في الطب النفسي, وعاهدت نفسي أن أعالجَ المرضى بكلِّ إنسانية, أنْ أخفِّف عن كلِّ مَن جعلته الحياة يكفرُ بها. آهٍ يا مَن تقولون أنْ

لو كانتِ الحياة كلها سعادة لكانتْ مملَّة، آهٍ من جهلكم وتناقضكم أنَّكم بذلك تنتقدون الجنة التي تتكبَّدون الحياةَ من أجلها، آهٍ منكم يا مَن تعتقدون أنَّ الحب ليس فيه منفعة, وأنه مجرَّد شعور بالانجذاب والتعلق، آهٍ يا لجهلكم! يا لشهوتكم التي تسوقُكم أنَّ الحبَّ هو المصلحة, لكن مقياس خيرية الحبِّ هو المنفعة للطرفين, ومقياس كذبة المنفعة لطرفٍ والضرر للطَّرف الآخر, فالحبُّ الحقيقي هو الحبُّ النافع، آهٍ يا مَن تقولون إنَّ التواضع خلقٌ رفيع, إنَّني إن تواضعتُ للوضيع وضَعَ من شأني, وإنْ تواضعت للعظيم صرتُ أقلَّ منه! لتذهب خرافةُ التواضع, على كلِّ إنسان أن يأخذَ حقَّه دون إفراطٍ ولا تفريط، مِن المؤسف أننا صرْنا نعتبر أخذَ حقوقنا– وخاصَّة المعاملة الحَسنة من الطرف الآخر – تواضعًا! يا أخي, هذا حقِّي, من حقِّي أن أُعَامَل بتقدير من المسئولين عنّي, من حقِّي أن أُعَامَل بلطفٍ ممَّن هُم أعلى منّي شأنًا، آسف لستُ الوضيع الذي يعتبر أخذَ حقوقه تواضعًا.

حكايةُ عقول

"تحذِّر الأرصادُ الجوية المواطنين لارتفاع درجة الحرارة غدًا, ووجود شبورة مائية على معظم أنحاء الجمهورية". هذا ما سمعَه حكيمٌ وهو مُقبل لإغلاقِ الراديو, سائلًا: والشُّغل ماذا نفعل فيه يا سيادة الأرصاد؟! وذهبَ في نوم عميق.

حكيم رجلٌ في العقد الثَّالث من عمره, ملامحُه هادئة, يكسوها اللونُ الخمري والحسُّ الفكاهي, وطابعُ الحُسن يزيّن وجهه الهادئ.

في تمام السادسة صباحًا, أفاقَ حكيم على صوتِ منبِّه هاتفه مثلَ كلِّ يوم وهو يغلقه, ويقاوم حلاوةَ النوم, ثمَّ ينهض مرتديًا ملابسَه الأنيقة, ويهذِّب شَعرَه ولحيته الخفيفة, ويلمع حذاءه, ثمَّ ينسالُ بعباراتِ الحب على عربته الصغيرة التي تُنقذه في كلِّ الأوقات هي ومذياعها الذي يغني بصوتٍ بالكاد يسمعه. أدار حكيم عربتَه وتحرَّك في طريقه للعمل, وبينما وهو على الطريق السريع الرابطِ بين طنطا وبركة السبع, وبالتحديد قبلَ وصوله إلى العمل ببضع دقائق وجدَ حادثة على الطريق, فنزل من سيارته مسرعًا لكي يساعدَ المصابين ويحملهم, وإذا أردت الدقة فقلْ ليحملَ الموتى الغارقين في دمائهم, وإذا به وهو يحمل إحدى الجثث يفاجَأ ويُصدَم بأنَّ هذا الشخص الذي يحمله هو أخوه الأصغر, الطالب الجامعي المُفعم بالأمل والحماس! يراه بين يديه غارقًا في دمه, فلم يتمالك نفسَه من قوه الصدمة, ولم يدرِ بنفسِه, ولم يفقْ إلّا هناك.

لقد فتحَ عينيه على رجلٍ يصرخ بعلوِّ صوته, وحوله أناس مجتمعون. سمع الرجلَ يصرخ ويقول: إلى متى سأظلُّ هنا؟ إلى متى سأظلُّ أقول متى؟ ووجدَ مَن حوله يضحكون باستهزاءٍ وهستيريا, وأردف الرجلُ بقوله: سأظلُّ أصرخ في وجْه الظلم, سأظلُّ أدافع عن حقي, سأظلُّ أطالب بحقي, حتَّى إذا ما قطعوا لساني لن تكفَّ يدي عنِ الإشارة. ففي دنيا المجانين يحكمون عليك, إمّا أن تصيرَ مثلَهم أو يُدخلوك مستشفى الأمراض النفسية حتَّى تصير مثلَهم فتخرج، يعتقد مَن في الخارج أنكم قد مسَّتْكم الشياطين، والأمرُ كلُّه نفسية، فشياطينُكم نفسية. لقد اكتملَ وعيي فاكتمل جنوني، تعالوا اغترفوا من وعْيي، إنَّ الرجل يجب أن يكون في داخلِه امرأة، والمرأة يجب أن يكونَ في داخلها رجل؛ حتَّى يكتملا. سأعلِّمكم المحبةَ كما لم يعلِّمها لكم أحدٌ قبلي، ايلِذُوا

أحبابَكم حتَّى لو كنتم ذكورًا، فهو الحبُّ الأبقى، الرجل يجبُ أن يلدَ حبيبته من رحِم قلبه، والمرأة يجبُ أن تكون وطنًا لحبيبِها. إنَّ مَن قال خذوا الحكمةَ من أفواه المجانين كان مجنونًا مثلي، إذ إنَّ الحكمة تخرج أحيانًا من أفواههم، أحبُّوا بعضَكم ولا تباغضوا، تعاونوا ولا تشاجروا، وبدل أن يحفرَ أحدُكم لأخيه حفرةً يقع فيها، ليحفرَ كلُّ واحدٍ منكم لأخيه قناةَ ماءٍ يشرب منها أخوه، ويشرب هوَ منها إن عطش، بدلَ أن يقعَ فيها هو نفسه. إنَّ الطيور عراكُها فرديّ، لا يوجد إلا الإنسان عراكُه زوجي، وهو أشرّ من الحيوانات؛ حيث إنَّ الحيوانات تستخدم القوة، أمّا الإنسان يستخدمُ القوة والعقل، ابتكرنا قانونًا يحجِّمُ من وحشيتنا، وابتكرنا حيلًا لخرق هذه القوانين. عليكم بالنُّضج, وعليكم أنْ تعلموا أنه ليس ثمَّة نضجٌ في كلِّ شيء، فقد ينضجُ أحدنا اجتماعيًّا لكن مَن منّا ينضج معرفيًّا؟!

عليكُم بالوعي؛ فالوعيُ كالنهار يجعلكم تروا الْأشياء بوضوح.

اسْمعوا نصحي، فكلامي آخرُ ملعقةِ دواء لدائكم، إذا ألقيتُم بها ستظلّون على دائكم، وسيفنَى الدواء، تحرّروا من الجمودِ عن طريقِ إعادة التفكير في كلِّ شيءٍ، ولا تتعصَّبوا لفكرتكم الجديدة، فالتعصبُ هو الجمودُ بعينه. صدِّقوني عندكم كنزٌ، فما في ظاهره الجنون قد يكون هو الحكمة بعيْنها، فنوح بنَى سفينته في الصحراءِ واستهزأ به قومُه, فأُغرقوا هُم ونجَا هو، أُغرق مَن استهزأ، ونجَا مَن آمن.

اسْمعوا نُصحي فإنّي أريد أن أعيدَ للخير بريقَه، فقد أصبحتِ الحياةُ باهتةً، ها قدِ امتزج الخير بالشَّر فصارَ لكلِّ شيءٍ وجهانِ: وجه خَيِّر وآخر شرّير، ها هي النار تضيءُ وتحرقُ، ها هي الأنهارُ تسقي وتُغرق، ها هو ذا الإنسان يُعمِّر ويخرِّب، يا لاعبًا لاهيًا مرتخيًا ذهبتْ لذَّاتك وبقيتْ آلامك، يا مجتهدًا مثابرًا متَّقدًا ذهبتْ آلامك وبقيتْ لذَّاتك، إذا دفنتْكم الحياةُ فانْبُتُوا، واعْلموا أنَّ الحزن فيه داعٍ للفرح, كما أنَّ في السلب داعيًا للإيجاب. كلُّ ضيق داعٍ للفرج، كلُّ نفي داعٍ للإثبات، فإذا نفيتَ شيئًا فقد أثبتَّ ضدَّه.

قاطع حكيم (بليغ)، قائلًا: "قاربتَ الصواب، فأنا أتَّفق معك في أشياء وأختلفُ معك في أخرى، أتَّفق معك في أننا عندما نمارسُ العقلَ في دنيا المجانين يتَّهموننا بالجنون، ويرسلونَنا إلى المستشفى لغسْل أدمغتنا لنكونَ مُشابهين لمَن هُم خارج المشفى، لكن هذه ليستْ مشفى، هذا كهفٌ ونحن أصحابُ الكهف، وتحتَ هذا الكهف سيوفُ الرَّجعة التي ستعيد لنا هيبتنا، تلك السيوفُ النارية التي لا تقهَر. اسْمع منّي فأنا لست إنسانًا عاديًّا، فقد عضَّني أسدٌ فتحوَّلت إلى ثعبانٍ والتهمتُه، وعضَّني قردٌ من بني إسرائيل فصرتُ قائدَهم في الخير والشر، ولدغني ثعبانٌ فاكتسبتُ سحرَ موسى، قلْ لي بالله عليك هل مَن يسمُّون أنفسهم عقلاءَ هم كذلك؟! قل لي بأيِّ منطقٍ يسمُّون يومَ الاثنين بيوم الاثنين، وهو ليس ثاني أيام الأسبوع؟! ويسمُّون الثلاثاء بالثلاثاء وهو ليس بثالثِ أيام الأسبوع؟ كذلك الأربع والخميس! إنه حقًّا لأمرٌ عجيب يستحقُّ التعقل، ثمَّ قلْ لي لماذا يتحايلون على القانون والقانونُ ذَكَر؟ لو كان القانون يحبُّهم لما تركهم يتحايلون عليه؛ لأنَّه كما قلتُ لك آنفًا لفظُ مذكَّر، ولو كان القانونُ مؤنثًا لعذرْناهُ وقلنا إنَّه يتدلل، قل لي ماذا لو كان البشرُ يفتقدون حسًّا, هذا الحس ينقص إدراكهم كما يفقد بعضُ البشر بعضَ الحواس, ماذا لو كانتِ المصيبة تخصُّنا جميعًا؟! قالها وهو ممسكٌ سيجارته في يده، ثمَّ قال: أترى هذه السيجارة! إنَّها مفيدة جدًّا, لدرجةِ أنها مفيدة أكثرَ من البرتقال الذي يأتون به لنا كلَّ يوم. اسْمعني يا هذا, أنتَ تريد القانون لأنَّك ضعيفٌ كالدول الضعيفة التي تلجأ للأمم المتحدة، أمّا الدول القوية فمعَها حقُّ الفيتو! الأمرُ يُشبه العراك, يخضع الضعيفُ للقوي, ويخضع الأضعفُ للأقلِّ ضعفًا، وحينها سيُهَيَّأ للضعيف أنَّه أقوى رغمَ أنه هُزم من غيره، أنت تريد القانون, وغيرُك يريد المصلحة, أنتَ كشخص مهذَّبٍ القانونُ مصلحتُك، وهو كشخص سيئ مصلحتُه قانونه. إنَّني أعترضُ عليك يا هذا في وصفك لنا بأنَّنا شياطين نفسية، فنحن ملائكة في ثوبِ شياطين، نحن أحفادُ الخَضِر، يظنُّ الناسُ أنَّنا أشرارٌ كالخَضِر الذي خرقَ السفينة وقتلَ الغلام، فكان ظاهرُ أفعالِه الشرَّ، وباطنُها الصلاحَ، لا تتعجَّب من ثقافتي، فأنا في الأصل طبيبٌ, وهذا معلم, وهذا مهندس, وهذا لا أعلم وظيفته، لكنَّه معنا في المستشفى, أو بمعنى أصحّ في الكهف، لقد دمَّرونا نفسيًّا وتركونا نُدمَّر أنفسَنا نفسيًّا، وهذا ليس بعجيب، فهُم مَن

دمَّرونا نفسيًّا، ثمَّ أتوا بنا إلى هنا لكي نصيرَ مثلَهم. يا أخي, ارفضْ حدوثَ هذا، ويريدون أن يعمِّروا المريخ بدلَ أنْ يعمِّروا الأرض التي أفسدوها! حقًّا إنَّ فناء كائنٍ حيٍّ لهوَ رحمة لكائنات أخرى، إذ إنَّه يلتهمهم. تخيَّل معي ما سأقوله لك حتى تفهم معنًى عميقًا، تخيَّل معي أن الأرض كائنٌ حيٌّ, ونحنُ خلاياه, والخلايا التي هي الكائناتُ لها خلايا، وما يؤكد ذلك دورة الحياة، تخيَّل معي أنَّ الإنسان عندما يموت تتناسخ روحُه إلى حيوانات مختلفة، ويظلُّ في دورة طويلة حتَّى يرجع إنسانًا، حينها فقط ستدركُ قيمةَ أن تكون إنسانًا، وستتمنَّى- وأنت حيوان- أن تكون إنسانًا حتَّى لو إنسان غبيّ، أعرفتَ قيمة نفسك؟ وقيمة كونك إنسانًا؟

أُعْجبَ (بليغ) بكلامه, ثمَّ قال: إنَّني أعاهدُ نفسي على التأقلم من اللحظة رغمَ الأسى. وتذكر (بليغ) مرارَ حياته فقال: لقد دخلتُ هنا ظلمًا، بل إنَّ حياتي كلها ظلم، أنا مِن أسرة فقيرة, كافحتُ وبحثتُ عن عملٍ خارجَ مصر، وبالفعل سافرتُ معَ الكفيل إلى الإمارات، وعملت في مطْعم، وقد تميَّزت عن أقراني بأمانتي، أحبَّني صاحبُ المطعم، ولمّا مرض لم يقف بجانبه أحدٌ غيري؛ لأنَّه لم يكنْ له أولاد، ولعلَّ عقمَهُ هو سببُ طلاق زوجته منه، اعتَبَرَنِي ابنه، ووهب لي المطعم, ومالبث أسابيع إلَّا وقد توفَّاه الله. حزنتُ عليه حزنًا شديدًا، فلقد كان رجلًا صالحًا. أدرتُ المطعم وربحتُ منه أموالًا كثيرة، وكنت أرسل أغلبَ الأرباح إلى أسرتي، فاشترى أبي أراضٍ وبنَى فيها مشاريعَ لإخوتي، ودعَّمهم بمالي لإتمامِ المشاريع من مستلزمات وبضائع، وهدم بيتنا القديمَ وبنى عمارةً جديدة، وعقارات جديدة محلَّ نظر. كلُّ أهل قريتنا لمَا كان لها من أساسٍ قوي وشكل جذاب، وبعدَ مرور ثمانِ سنوات من الكفاح جاءني خبرُ وفاة والدي، فقلت كفَى غُربة. وقد كان هناك رجلٌ قد عرض عليَّ شراءَ المطعم لمَا رأى فيه من نجاحٍ باهر، وقد كنتُ أرفض، لكنْ بعد وفاة أبي قرَّرت بيعَ المطعم وأعود إلى بلادي، وأقيمَ فيها, ويكون لي مشاريعُ هناك. رجعتُ إلى مصر وبالتحديد إلى قريتي، وحضرتُ مراسمَ عزاء أبي، ولمّا جاء وقتُ توزيع الميراث، قال لي إخوتي: أموالك من الميراث ليس لك فيها حقٌّ, وكذلك العمارات والمشاريع التي بناها أبونا وجهَّزها لنا. قلت لهم: إنَّ هذا من مالي ونتاجُ جهدي, وأنتم تعلمون هذا جيدًا! ولكنهم لم يكتفوا بذلك؛ بل اتَّفقوا على توزيع الميراث فيما بينهم, وأنكروا أني أخوهم بسببِ خطأ في

اسمي، فاسمي مقيَّد عند الحكومة (بليغ محمد توفيق)، و(توفيق) هذا هو لقب جدِّي، فأنتَ تعلم جيدًا أنَّه في أيام الملكية لم يكنْ هناك اهتمامٌ بتقييد الأسماء، فكان اسمُ جدي مختلفًا بيني وبينهم، ففي بطاقة تعريفي الشخصية اسمُ جدي (توفيق) وفي بطاقتهم اسمه (عطية) فاستغلّوا ذلك، وحَرموني من الميراث الذي هو في الحقيقة مالي لا مالُ أبي، فوالدي كان فقيرًا! لم يقفِ الظلم عند ذلك، فعندما رفعتُ قضية إثبات نسبٍ رفضَ أهل القرية إثبات نسبي غيرةً وحقدًا, قلت: عوضي على الله. وقرَّرت أبدأ حياتي من جديد بما معي من مال بيْع المطعم، وبما تبقَّى معي من الأموال القليلة التي كنت أدَّخرها ولا أرسلها. أقمتُ عدة مشاريع؛ محلَّ ملابس جملة، ومحلَّ بيع أغذية جملة، ومحلَّ بيع أدوات منزلية، ومقهى، لكني حوربت للمرَّة الثالثة ووقف أهلُ القرية ضدّي، فكانوا يبيعون بأقلَّ من سعر الجملة، ويخسرون في سبيل فشلِ مشاريعي، حتى إذا ما فشلتُ باعوا بالسِّعر الذي يرغبون فيه, معوِّضِين خسارتهم بأضعافٍ منَ المكسب، فضاع كلُّ مالي، وخسرتُ كلَّ ما أملك من محلات، حتى المقهى أوكلتُها لأناس غيرِ أمناء, فكانوا يسرقون أغلبَ الأرباح حتَّى نفد كلُّ مالي، فحزنت حزنًا شديدًا على ما ألمَّ بي، فاستغلَّ إخوتي حزني وأدخلوني مستشفى النفسية والعصبية، وللأسف لم يميز الطبيبُ المشخِّص بين الحزن والاكتئاب الشديد لمَّا هوَّل إخوتي من حالتي، لكنَّ الطبيب سمع منّي، وكان من المفترض أن يميِّز بين الحزن والاكتئاب، لكنه معَ الأسف شخَّصني كحالة حرجة تحتاجُ إلى العناية في المشفى، ولمّا حوَّلوني إلى عنبر (أ) رجال في أوَّل يوم، سُرِقَ منّي حذائي، قلتُ حتَّى المجانين لم أنجُ منهم! أَأَنا هذيل لهذه الدرجة!؟

أأنا خائب لهذه الدرجة التي تجعل المجانينَ يستغلّونني هم الآخرون. لا أكذب عليك, فالوضع كان في مُنتهى الصعوبة، كنت أحسُّ بالظلم, وأشعرُ أنّي في سجنٍ وفي غابة، لقد كنت أرى المرضى يضربون بعضَهم البعض فأُرْعَبُ, ويزدادُ خوفي على نفسي، أجزم بأنَّ الحياة هنا أصعبُ من الخارج؛ ففي الخارج الأسوياءُ قليلون، أمّا هنا فمعدومون. انْصحني ماذا أفعلُ كي أستطيع العيشَ وسطَ البشر.. وسطَ الذئاب الماكرة المفترسة؟!

حكيم: لقد أشفقتُ عليكَ، إنَّ قصتَك مثيرةٌ للشفقة؛ لذلك سأنصحُك بنصيحة تجعلك ذئبًا بينَ الذئاب؛ اصطَنِعْ لنفسك عقدًا، وتعلَّم من الجميع, وخاصَّة المخالفين لك في الرأي، وأصْغِ جيدًا، ليكنْ صمتُك تأمُّلًا, وكلامُك بوحًا عنِ التأمل، فكِّر فيما تقول قبلَ أن تتكلم، وتعلم آراء المخالفين لك إنْ كانت هي آراءَ العامة، سرْ معهم وتبنَّ أفكارَهم، تشبَّث بها، دافعْ عنها بشراسة وواجِهِ الأمورَ الصعبة بالغضبِ لا بالحب، فالحبُّ ضعفٌ، والغضبُ قوة، والهزيمة تأتي من الضعفِ لا من القوة، وإيَّاك أن تحتقرَ نفسَك ظانًّا بأنَّك منافق، فالمنافقُ يخدع الآخرين لينتصر عليهم ويضرَّهم، أمّا أنت فتحمي نفسَك من شرِّهم، هكذا ستصير ذئبًا بين الذئاب يا صديقي، أنتَ مريض بمرضٍ نادر؛ مريض بالنقاء.

لك قلبٌ مريض بالإخلاص يجب بترُه حتى لا تنتشر العدْوى، علاجُك الخذلان والآلام, لعلك لم تذقْ جرعة شديدة بعدُ حتى تُشفَى من مرضك، وحدي أفهمُك وأفهم ما بداخلك, وأشعر بما تشعر به، صدِّقني يا صديقي الحياةُ تقتل كلَّ جميل فينا، الحياة تجبرنا أن نكون سيئين، إننا نحارب قوةَ الشَّر المسيطرة قبلَ وجودنا، لو دام حالنا.. لو دامتْ طيبتنا ستدوم خيبتنا، إذا لنبصق في وجْه السماء, ولنبصق في وجه من على الأرض، لكن لو بصقنا في وجه السماء ستعود البصقة إلى وجوهنا، ولو بصقْنا في وجْه مَن على الأرض سيتمُّ دهسنا؛ لِنَمُتْ قَهْرًا يا صديقي.

بليغ محدِّثًا نفسَه: عليَّ أن أتعلم من المجانين، ففي كلِّ كلمتين يصحبهما الهذيان هناك كلمةٌ تصحبها الحكمة، إنني أدْعو نفسي لتعلُّم هذه الحكمة وسطَ كلِّ هذا الجنون.

التفت (بليغ) خلفَه فإذا برجلٍ يطوف في المكان، قائلًا: "الداخل عاقل, والخارج مجنون". فأقبل عليه (بليغ) ليعرفَ قصَّته, فأوقف الرجلَ وقال له: عرِّفني بنفسك.

الرجل: اسمي إسماعيل.

بليغ: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

إسماعيل: لست مريضًا نفسيًّا, أنا مدمن.

بليغ متعجبًا: كيف يُدْخِلُونَ المدمنين مع المرضى النفسيين، إن هذا سيزيد من حدة اكتئابهم، ثمَّ كيف للمدمنين أن يدخلوا مستشفى نفسية وعصبية!

إسماعيل: أنسيت أنَّ اسم المستشفى النفسية والعصبية وعلاج الإدمان؟

بليغ: وما الذي دفعك للإدمان؟ أيُّ عقل يختار أن يكون أسيرًا لشيء, وعبدًا له؟! ألَا تعقل؟

إسماعيل: لقد كنت ذاهبًا، فأعودُ إلى البيت لأجد أمِّي تمارس الجنسَ وزوجتي كذلك.

قالها والدموعُ في عينيه، ثمَّ بكى.. ثمَّ ازداد بكاء لأنه بكى, فاسترسل في البكاء, وقال وهو ينهنه: لقد أشعروني أنَّ الإنسان ما هو إلَّا عضوٌ جنسي، أشعروني أنَّ هذا ليس بيتًا, وإنما هو بيتُ دعارة، قصتي مؤلمة, أليس كذلك؟! قل لي أيُّ عقل يتقبل ذلك أيُّها العاقل، لم أستطع مقاومةَ ذلك إلَّا بالمنشطات والمكيفات. إنَّ الدولة تخصص ميزانية ضخمة لمعالجة المدمنين على نفقتها، والسؤال لماذا تسجنهم إذا أمسكتهم وهُم يتعاطونَ المخدرات، ولا تسجنهم إذا دخلوا المصحة النفسية؟".

بليغ: ببساطةٍ لتعذُّر مَن يسلك هذا السلوك السيئ.

إسماعيل: السؤالُ أيها الذكي لماذا تلقي بهِم في السجون بدلًا مِن أن تلقي بهم في المصحات النفسية؟

وما إنْ أنهى إسماعيل كلامَه حتى نادى منادٍ: "حانَ وقت الغداء". تقدَّم الدولة غذاءً مكلفًا للمرْضى النفسيين؛ لأنَّ منهم مَن يجعله اكتئابُه يأكل بشراهة، ومنهم مَن يجعله اكتئابه يحجِمُ عنِ الطعام، وهذا الأمرُ يجعلني أتطرَّق إلى حكاية ذلِّ السجائر، هنا في المستشفى الوحيدة المسموح فيها للمرضى بالتدخين, هنا السجائرُ هي المعدنُ النفيس، وسرُّ الحياة، فقد يستبدل مريضٌ اكتئابه, يجعله اكتئابُه يأكل بشراهةٍ الطعام مقابلَ سيجارة، ممَّن يجعله اكتئابه يحجم عن الطعام، لا يتوقف ذلُّ السجائر عندَ استبدال وجبةٍ بسيجارة، فكان عندما يطلب أحدُهم نفسًا من سيجارةِ مريض آخر، يقول له: تعالَ قَبِّل باطنَ كفِّي. فَيُقَبِّلُ السيجارة، ويأخذ النفس، هذا إن لم

يكنِ المريض مريضًا بالساديّة، فلو كان المريض ساديًّا فالوضع يختلف تمامًا, فالمريض الساديّ إذا طلب أحدَ المرضى منه نفَسًا من سيجارةٍ يلقي السيجارة تحتَ قدميه, وينتظر عندما يأتي وينْحني ليأخذَ السيجارة فيضربُه على قفاه، كلُّ هذا من أجل نفَس سيجارة!؟

لنكملَ حديثنا عن (بليغ), وبعدَ أن تناول (بليغ) وجبتَه خرجَ من (الميس) الذي يتناولون فيه الطعام, فوجد رجلًا تبدو عليه علاماتُ الاكتئاب الحادَّة ممسكًا بسيجارته, ويدخن بشراهة لدرجة أنَّه أنهى نصفَ السيجارة في نفَسٍ واحد، فأقبلَ عليه (بليغ) ليسمع قصته, فسأل الرجل: ما اسمُك؟

الرجل: اسْمي عزت السقا.

بليغ: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

عزت السقا: كلُّ واحدٍ منّا بداخله لصٌ، وأنا أمسكتُ هذا اللص، لقد أصبتُ بلعنة الشك, أشكُّ في كلِّ شيء, وأيِّ شيء, صحيح أنا مريضٌ بالشك, لكنَّ نفوسهم أشدُّ مرضًا! ففي كلِّ مرة أجبرني مرضي فيها على الشكِّ كان شكّي في محله, لا أستطيع مواجهتهم, ولا أستطيع مواجهة نفسي, إذ أني لم أجدْ نفسي بعدُ حتَّى أواجهها, أتريد مالًا اذهبْ إلى عزبة السقا، وقل لهم عزت يقول لكم أعطوني مالًا سيُعطونك على الفور.

خافَ (بليغ), لا من كلماته؛ بلْ من طريقة إلقائه للكلمات التي أشعرتْه بأنَّ جنًّا يتكلم، ويسمع (بليغ) صراخَ رجلٍ فيزداد خوفُه أكثرَ ممّا سمعَ من عزت، يصرخ الرجلُ قائلًا: "الممرضون قد ضربوني البارحةَ يا دكتور جلال، توقَّف من فضلك, لقد ضربوني بدون أي سبب".. ويكشف الرجلُ عن ظهره فيرى الدكتور علاماتٍ كأنه جُلِدَ بالسَّوط لا ضُرِبَ, أقسم الممرضون جميعًا للطبيب أنه لم يمسُّه أحدٌ, وأنَّ هذه الشكوى كيدية, وتتكرَّر منه دائمًا، راجع الطبيب الكاميرات، فإذا بكلام الممرِّضين صحيح، لم يمسُّه أحدٌ, فَمِنْ أين أتت تلك العلامات!؟

يتحدَّث الممرضون والممرضات معَ بعضهم, و(بليغ) مُنصت لهم، فإذا بالممرضات يقلنَ بعدَ أن انصرف الطبيب: "بصدقٍ هل ضربَه أحدكم؟".. قالَ الممرِّض معاذ: "لقد ضربتُ اثنين البارحة،

وعذَّرتهما لأنَّهما تشاجرَا".. ثمَّ قال مفتخرًا بنفسه أمامَ الممرضات: "لقد سبَّني أحدُ المرضى البارحة أيضًا، فربطتُه في السرير، وضربتُه ضربًا مبرِّحًا، أمّا هذا فلم أقتربْ منه".. قال الجميع: "ولا أنا".. قالت سعادُ الممرضة لمعاذ: "مِن حظِّك أنَّ عنبر الرجال ليس كعنبر النساء، ففي عنبرِ الرجال عندما تضرب أحدَهم يتفرَّق الجميع, عكسَ عنبر النساء، عندما تضرب إحداهنَّ يجتمعْنَ لضربك".

معاذ: إنَّ عنبر النساء يفرُّ منه الممرِّضون والممرضات، فتفرُّ الممرضات لعدم قدرتهنَّ على حمايةِ أنفسهن، ويفرُّ الممرضون بسبب مَنْ عندهنَّ هاجس اللمس أو وسواسُ اللمس، فقد جربت هذا بنفسي, ووضعَ يدَه على قفاه، ثمَّ قال: "لقد كنت واقفًا ذاتَ مرةٍ فصرخت مريضة، لقد لمَسَني.. لقد لمَسَني، إنه يعبثُ في جسدي، وأفْحَمتني ضربًا، فاجتمعت كلُّ النساء وأكملنَ الضرب".

أحسَّ (بليغ) بأحدٍ يضع يدَه على كتفه، فالتفت, فإذا برجلٍ وسيم يقول له: "ما بكَ أراك واقفًا مشْدوهًا؟".

بليغ: لا شيء، فقد كنت أفكِّر في أمر.

الرجل: ما اسمُك؟

بليغ (معرِّفًا نفسه): اسمي (بليغ). وأنت ما اسمك؟

الرجل: اسمي عصام.

بليغ: وما الذي جاءَ بك إلى هنا يا عصام؟

عصام: لا أحبُّ أن أتذكر ما جاءَ بي إلى هنا، لا تذكِّرني بخيبتي، لكن يبدو عليك أنَّك إنسان صالح؛ لذلك سأصارحُك بسببِ مجيئي إلى هنا.

ثمَّ وضع يدَه على صدره, وقال: هنا ثقلٌ, لقد كنت شابًّا جميلًا تنجذبُ الفتيات إليَّ، فكنت أعمل كفردِ أمن، وبينما أنا واقفٌ ذاتَ مرة رأيت فتاةً سمراء، لكنَّها شديدة الجمال، كاشفة عن شعرها

وساقيها ممَّن يدعونَ أنفسهنَّ بالمتحرِّرات، سرتُ وراءها فلاحظتْ ذلك, والتفتت إليَّ وابتسمت، فاعتبرتُ ذلك من علاماتِ القبول. دخلتُ المطعم وراءها وقد شجَّعتني ابتسامتها على الحديث معها، جلستُ على نفس الطاولة التي جلست عليها، وقلت لها: "أنا معجب بك، وصدقيني لم أنجذبْ لفتاة مثلما انجذبتُ إليك".. قالت وهي مبتسمة: "وأنا أرى كلَّ سمات الرجولة فيك". شجَّعني ذلك على طلبِ الزواج منها، فقالت: "أنا لا أفكِّر في ذلك الأمر حاليًا، وخاصَّة أن الرجال سطحيّون. اتَّسع صدري، وقلت لها: "سأتقبَّلك كما أنت".. وأنا أقدِّر تفكير المرأة وعمقها. لم أكنْ أعلم حينَها أنَّ عمق المرأة في رحمِها، بل إنَّ رحمها حتى ليس عميقًا، فهو بضعة سنتيمترات، وبعدَ أن سمعت كلامي، قبلتِ الزواج منّي, وكانت الكارثة.

في أول يومٍ لنا في الزواج، دخلتُ عليها كأيِّ عريس يدخل على زوجته، فلم يكن لها بكارة، حزنتُ فاحتضنتني باكية، قائلةً بكذبتهنَّ المشهورة: "لقد كنت مخطوبة قبلَ أن تخطبني، ولقد كنتُ أحبُّ خطيبي جدًّا، ومارستُ معه الحب، أليس من حقِّ الحبيب أن يحتضن حبيبه.. ويمارس معه الحب, ويمارس علاقة كاملة معه تشبع الفؤادَ وترويه؟ لكنَّه توفي إثرَ حادث بالسيارة، لقد وعدْتَني أن تتقبَّلني كما أنا، أرجوك لا تكنْ سطحيًّا، لقد أحببتُ فيك عمقك الذي تنفردُ به عن باقي الرجال".

انطلتْ عليّ الحيلة، فتقبَّلتها كما هي, وأخذتُ أحنو عليها، وأضمُّها إلى صدري، وأربِّت على كتفها، وأقول لها: "أحبك".. لكنْ لم يكن جزاءُ الإحسان الإحسانَ؛ بل كان جزاؤه الخيانة، فقد كانت تتحدَّث مع عشيقها في الهاتفِ بصيغة المؤنث، لكن من حظِّها السيئ أنه ذات مرة كان صوتُ الهاتف المحمول عاليًا، فسمعتُ صوتُه، فقلت لها: "أتخونيني بعدَ كلِّ ما فعلته من أجلك؟ هل هذا جزاءُ إحساني إليكِ؟ ألكِ عشيق وحبيبٌ غيري بعدَ كلِّ ما فعلته من أجلك؟".

أنكرتْ بشدة، وقالت إنه يُهَيَّأُ لي ما قد سمعتُه، ولامتْني على شكِّي فيها، وبكت، لكنَّ هذه المرة لم تنطلِ عليَّ الحيلة، فطلَّقتها على الفور، ومِن يومها وأنا مكتئب، ومعقَّد من النساء، حقًّا إنَّ المرأة تمتلك رحمًا لا قلبًا، لكنّي الآن أصبحت أتقبل النساء.

بليغ: وما السبب؟ أعطني السرَّ؟

عصام: أصبحتُ أتقبَّل النساء؛ لأني باختصار صرت أتقبَّل القذارة.

بليغ (محدِّثًا نفسه): أمّا أنا, فلم تخدعني امرأة؛ فأنا أعرفهنّ. أعرفهنَّ وأعرفُ مدى حقارتهن, كلُّ النساء اللاتي مررتُ بهنَّ في حياتي كنَّ فئرانَ تجاربٍ لأعرف منهنَّ طبيعة المرأة, حتى أنني كنت أتعمَّد أنْ أضعَ نفسي موضعَ الضَّعف أحيانًا مع أكثرِ من امرأة لأرى ردَّة أفعالهنَّ, وأعرفُ عن المرأة أكثر؛ فالمرأة بالنسبة لي فأرةُ تجارب إلّا إنَّني قد أخشى الفأرَ ولا أخشى المرأة.

وإذْ بولدٍ يتدحرج جوارَ أقدامهم.

بليغ: ما الذي جاءَ بهذا الغلام إلى هنا؟ ما الذي جاءَ به إلى عنبر الرجال؟!

عصام: هذا ليس طفلًا، وإنما هو شابٌّ ضعيف البنْية.

بليغ للولد: ما الذي جاءَ بك إلى هنا؟

الولد: مَن تقصد؟ أتقصد حمو, أم الشبح, أم العفريت؟

بليغ (محدِّثًا نفسه): مِن الواضح أنَّه مريض فصامٍ. ثمَّ تكلم، قائلًا: وما الفرقُ بين حمو والشبح والعفريت؟

الولد: حمو طيب، والطيب يؤكَل، حمو لا يستطيع العيشَ في هذه الحياة، حمو مات، وأنا شبحُه، أمي مَن تكفَّلت برعايتي وأنا صغير بعدَ وفاة أبي, وإخوة والدي الذين لا يستحقُّون لقبَ أعمام، لم يساعدوا أمّي المسكينة، لقد كنّا ننام في الطرقات، وقد تعرَّض البلطجية لأمي واغْتصبوها وأنا مكتوفُ اليدينِ لا أستطيع الدفاعَ عنها، ولا أستطيعُ الإنفاق على نفسي، أنت لا تراني الآن, أليس كذلك؟! لأنِّي العفريت.

فهِمَ (بليغ) حينها أنَّ لكل شخصيةٍ سببًا، فحمو هوَ شخصيته الحقيقية المهزومة التي دفنتها بشاعةُ الحياة وشرُّ الناس؛ ليخرجَ لنا شخصٌ آخر وهو الشبحُ الذي سيزعجهم, فلا شكَّ أنه اختارَ شخصية العفريت؛ لأنَّ العفريت صغيرُ الحجم مثله, لكنْ فيه سرُّ القوة،، القوة التي طالما

تمنّاها حمو ليدافعَ عن ضعفِه، وهي الاختفاءُ حيث إنَّ حينها سيضرب الخصم مهما كان ضعيفًا فهوَ لا يراه.

تركَ الولد (بليغ) وأخذَ في التدحرج، ثمَّ رأى (بليغ) رجلًا رافعًا رأسه، ويدُه مكسورة, يبدو أنَّ أحدَهم ضربه ضربًا مبرِّحًا حتَّى كسر ذراعه، يرفع الرجلُ صوته وهو يسير، قائلًا: "جميع السماوات والأرض, جميع السماوات والأرض".

بليغ: ما بكَ يا رجل؟

الرجل: جميعُ السماوات والأرض.

بليغ: ما بها؟

الرجل: أنا خالقها.

فهِمَ (بليغ) حينَها لمَ كُسر ذراعه، إنَّه مدَّعي الألوهية، وسببُ ادِّعائه أنه مريضٌ بجنون العظمة.

بليغ: وكيف خلقتها؟

ظانًّا أنَّ له فلسفة كمَن سبقوه من المرضى.

الرجل: اذهب يا ولد بدلَ أن أضربك.

ذهبَ (بليغ) إلى سريره كي ينام، فنادَى عليه رجل، سأله (بليغ): مَن أنت؟ ردَّ الرجل قائلًا: أنا المهدي.

بليغ (مازحًا): لقد سألتُك على اسمك، ولم أسألك عنْ مهنتِك أيُّها المخلِّص.

الرجل: اسْمي صابر.

بليغ: حدِّثني عن دعوتك.

صابر: لقد أتيتُ لأملأ الأرضَ رحمة، قد جئتُ لنصرةِ الحق, وقطعِ شوكة اليهود. أتيت لأكون بئرًا عذبًا أو نبعَ ماء أروي صدورَ العطاشى والتائهين في صحاري الحياة, حياة غرور كاذبة تغوي الذباب بالعسل, وتنسى الموت الذي ينتظرها في قلبِ لذَّتها, حظِّي قليل, لكنَّه كطعام الفقراء يمتلئ بالبركة, الله يوزِّع الأرزاقَ ويقسِّمها, فلا البحر يستطيع منعَ أسماكه, ولا الهواء منعَ طيرِه, ولا السماء منعَ قطرها, وما يرزق اللهُ به أهلَ البحر لو أنَّ لأهل الصحراء قسمًا فيه لأتاهم رزقُهم, فلا خوفٌ ممّا عند الله, فليطفئ مَن يظن أنَّ نورَه مصبحي؛ فنورُ الله في قلبي لا يعادله أيُّ نور, الخيرُ للجميع, والدمارُ كلُّ الدمار لليهود, هذه رسالتي.

بليغ: وكيف ستحاربهم؟ هل بالسيوف أم بالأسلحة الحديثة؟

صابر: بالطائرات، سأحاربهم بالطائرات، لكني لن أفعلَ ذلك وحدي، يجب أن تعود الأمة إلى رشْدِها. إنَّ أمة تُحَرِّمُ الموسيقى ولا تحرِّم الكسل؛ هي أمة خاملة، خالفتْ تعاليمَ دينها الصحيح، قلْ ورائي.. اللهمَّ أعطني يومًا من أيام عمي صابر.

ردَّد (بليغ) ما قاله صابر, ثمَّ سأله: لماذا يوم لا أيام؟

صابر: لمّا علم آدمُ بأني المهدي أعطاني خمسينَ سنة من عُمره, ونسى أنَّه بذلك يؤخرني عن مهمَّتي، وأيامي كلُّها حزينة بسبب بُعدي عنْ مهمتي الحقيقية التي ستكون في أواخر عمري، لذلك أريدك أن تأخذَ منّي يومًا لا أيامًا، فقد تعيشُ تعيسًا لو أخذتَ أيامي، وهذا ما لا أقبله، لأنّي أحبُّ الجميع. يا الله.. إنّي كطائر ذُبح, وكلَّما حاول الطيران رفرفَ رفرفةَ الذبيح! يا الله.. إنّي أشعر أنّي ابتعدتُ عن غايتي, وأنَّ روحي مثقلة, وأرفرفُ رفرفة الميت, إنّي أشعر بحشرجة الذبيحة وغرغرة الميت.

بليغ: وهل آمنَ بك أحد؟

صابر: أختي صدَّقتني, وبعضُ الناس الذين معنا هنا، وكذلك طلابُ كلية التمريض الذين يزورونني.

ثمَّ أشعل سيجارته.

بليغ (مخاطبًا نفسه): لا شكَّ في أنَّ كلهم يسايرونه كما أسايره خوفًا من أن يضربني".. لكن سرعانَ ما حثَّ الفضول (بليغ) على الشجاعة، فقال له: "إذا كنت المهدي فلماذا ألقوا بك في المستشفى؟ جاوبني ثمَّ قلْ لي هل ينبغي على المهدي أن يدخِّن!".

صابر: إنَّ مَن يلقي بالمخلِّص داخل مستشفى الأمراض النفسية لهوَ كافرٌ بالضرورة.

ثمَّ أشعل سيجارة أخرى، وقال: المدخِّنون صالحون. ألَا تراهم ينفثون روحَ الشرِّ بعد إدخالها، أرأيتَ مدخنًا يبتلع دخانَ سيجارته؟ إنهم يلفظونَ ما يدخنون؛ إذًا فهُم سريعو التوبة, فطوبى لهم.

بليغ (محدِّثًا نفسه): إنَّ هؤلاء المرضى عقولُهم طائرة, فهي محلِّقة عنهم تارة، ومحلِّقة معهم تارة فوقَ العقول العادية، فتجدهم ينطقونَ بالفلسفة". ثمَّ رفع (بليغ) صوته قائلًا: "اسمح لي بالانصراف يا مَن تدَّعي أنك المهدي، لكني أريد أن أصحِّح لك معلومة، المهدي ليس شخصًا بعيْنه، كلُّ مَن هداه الله فهو مهْدي، والشرفاء ليسوا هُم مَن ينتسبون إلى الرسول الكريم، فكل مَن شرفَ قلبُه بالنقاء فهو مِن الأشراف".

ثمَّ انصرف عنه, وذهب إلى السرير للنوم. وفي الصباح, نادى منادٍ: لقدْ وصل الحلاق اجتمعوا للحلاقة. وبينما يسير (بليغ) للذَّهاب إلى الحلاق، إذْ برجل يقبِّلُ صدره ويقول: "أنا لا أقبلك أنت، بل أقبِّل قلبَك النقي. سأله (بليغ) عن اسمِه، فقال: اسمي أبو عائشة، وأنت ما اسمك؟

بليغ معرِّفًا نفسه: اسمي (بليغ). وسأل سؤاله الفضولي المعتاد: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أبو عائشة: لا أعلمُ ما الذي جاءَ بي إلى هنا، كلُّ ما أعلمه أنني أتمنَّى أن أرجع إلى البيت، وأرى أمَّ عائشة, وأرسل عائشة لتشتري لنا الفلافل، ثمَّ أقلق عليها، وأذهب وراءها، لقد كانت حياتي حياةً ممتازة، لكنَّهم أتوا إلى المنزل وأخذوني إلى هنا، وقالوا لي إنَّ هذا المكان سيعالجني، فأنا أحبُّ هذا المكان لأنَّه سيعالجني، وأحبُّ كلَّ الناس, وأحبك, وأحبُّ أمريكا لأنها دولةٌ قوية، وأحبُّ إسرائيل لأنها مذكورةٌ في القرآن, وأحبُّ السعودية لأنَّ فيها بيت الله، وأحبُّ أبا

لهب لأنَّه عمُّ الرسول.. هذا عن حكايتي التي أردت معرفتها، أمّا أنا فيغنيني فهْمُ إحساسك وقلبك النقي عن فهْم حكايتك, تالله إنها مكتوبة لك.

بليغ: ما هي التي تقسمُ على أنها مكتوبة لي؟

أبو عائشة: عائشة ابنتي سأزوِّجها لك، لكن يجبُ أن أصارحك أنَّ عينيها فيها حول، لكني أثقُ في قلبك النقي، أثق أنه سيتقبَّلها كما هي.

بليغ (محدِّثًا نفسه): ما هذا الرجل العجيب! لم أرَ شخصًا مليئًا بالحب مثله في حياتي، لكني أشكُّ في أنه يعيش في الوهم، لعلَّه غير متزوج، ولم ينجب عائشة التي يتحدث عنها, إنه ينطق بكلامٍ غير متوازن، ظاهرُه الحب، وباطنُه الاختلال، كيف يحبُّ أبا لهب وهو قد لعنه الله.

لكنْ لا بأس, سأكمل حديثي معه لأتعلم منه، فأنا قد عاهدت نفسي على ذلك، ثمَّ تكلم قائلًا: "أعطني نصيحة يا أبا عائشة".

أبو عائشة: أأعطيك سرًّا تكسب به ودَّ المرأة؟

بليغ: أعطني.

أبو عائشة: لا تعاملِ المرأة كملاك، فقط عاملها كإنسانة، إنك إن عاملتها كملاك ستخسر أنتَ قبل خسارتك إياها, فمثلًا إذا أخذت امرأة تحبُّك في نزهة وذهبتما إلى مكان لا تعرفونه، إذا عاملتها كملاكٍ ستأخذ (تاكسي) في كلِّ حركة، على عكس لو عاملتها كإنسانة, وغامرتما معًا وسرْتما سويًّا؛ ستفرح هي بهذه المغامرة, وبسيركما الذي طال, وإرهاقكما طالما هي تحبك، هذا عنْ إرهاقك إذا عاملتها كملاك، أمّا ما أقصده بمعاملتها كإنسانة أن تعاملَها بإنسانية ورحمة ولطف, وتتوقع منها الخطأ, وتسامحها عليه؛ لأنها ببساطة إنسانة وليست ملاكًا.

بليغ: شكرًا لك على هذه النصيحة القيمة.

ثمَّ رأى (بليغ) شابًّا يطوف داخلَ المكان وينطق بكلمات غريبة، كأن له لغة خاصة به لا يفهمها أحدٌ غيره، ثمَّ فجأة تحدث الشابُّ بكلمات مفهومة، فقال: "قومُ نوح خواص، فلِمَ أُهلك العوام؟".

اندهش (بليغ) ممّا قال، ثمَّ سأله عن اسمه.

الشاب: اسمي حسام.

بليغ: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

حسام: أعتذر فأنا مشغول الآن، معي هاتف أكلمُ صديقي.

ثمَّ رجع فتكلم بكلامه غير المفهوم.

نظرَ (بليغ) إلى يديه، فلم يجد هاتفًا، فعلم أنه في عالمٍ آخر غير عالمنا، وأنه على ما يبدو مصابٌ بهلاوس سمعية وبصرية.

إنَّ بليغ له معرفة بالأمرض النفسية, فقد كانت دراساته في كلية الآداب قسم علم النفس.

ولمّا وجدَ (بليغ) أنه لا فائدة من الحديث مع حسام، ذهبَ للاستماع إلى التلفاز، وكان التلفاز حينَها يعرض أغنيةً جديدة لمغنٍّ مشهور، يقول أحدُ المرضى المحبّين لهذا المغني: "انظر انظر، إنني أشبهُه كثيرًا، انظرْ إلى سحبة الوجه، ونبرة صوتي، إنَّها تشبهه تمامًا".. فقال له (بليغ): من أنت؟

قال له: معكَ الرائد عبد السلام، أي خدمة يا باشا، أنهيها لك على الفور.

عرفَ (بليغ) أنَّه موهوم، ينتحل شخصياتٍ لشعوره بالنقص، لكن في هذه المرَّة لم يسأل (بليغ) سؤالَه المعتاد، فهو مشغول جدًّا بالكلمات التي قالها (حسام).

عبد السلام: أأخبرك بقصَّةٍ يا هذا؟

بليغ: تفضَّل.

عبد السلام: أراد حكيمٌ أن يُعطي أولاده درسًا في التعاون، وأنَّ الاتحاد قوة، فنادى على أحد أولاده, فردَّ عليه قائلًا: "نعم يا أبي، فداكَ أبي وأمي".. وكان قويًّا، فقال له: "هاتِ حزمة من

الحطب، وامْسِك الحزمة جيدًا، وحاولْ أن تكسرها بكلِّ قوتك".. فأمسك الولد الحزمة بقوة ثمَّ كسرَها.

بليغ: ثمَّ ماذا حدث؟

عبد السلام: لا شيء. فقط فسدتِ الحكمة.

لم يضحكْ (بليغ) فهوَ منشغلٌ بأمرٍ أهم، ويقتله الفضولُ لمعرفة قصة (حسام), فما قصة حسام؟

****

حسام

شابٌّ مكافح يعملُ بجانب الدراسة، فقد تخلّى عنْه والده الذي في حقيقة الأمر يشبه وجودُه عدمَه، فمنذ أن نجحَ في الإعدادية قال له والده: "لقد كبرتَ وصرت رجلًا، أنفق على نفسِكَ، وأنصحُك بأن تدخل الدبلوم بدلًا من الثانوية، حيث إنَّ الثانوية مُكلفة ماديًّا، ولك مطلقُ الحرية.. هل هناك أبٌ أفضل منّي؟ أُعطيك الحرية, وأخيِّرك, ولا أجبرك على شيء.

فكّر (حسام) كثيرًا، ثمَّ قرَّر أن يكافح ويكملَ دراسته في الثانوية، وقد استطاع اجتياز مراحلها، ودخلَ كلية آداب فلسفة، ولمّا دخل الكلية صارتِ الأعباء عليه ثقيلة؛ حيث إنَّ أباه تخلّى عن إخوتِه البنات كما تخلّى عنه، فتكفَّل (حسام) بالنفقة عليهن، وأصبح يعملُ في أكثر من عمل بجانبِ الدراسة، فكان لا يحضرُ إلَّا أولَ الأسبوع ليعرف ما يدور برأس كلِّ دكتور، وعلى أساس ذلك يُجيب في الامتحان بالطريقة التي يرغب فيها أساتذةُ الكلية، وقد استطاع (حسام) اجتياز أولَ ثلاثِ سنوات في الكلية، لكنَّ المشكلة كانت في السنة الرابعة التي تعرَّف فيها على (سلمى) وأحبَّها بصدق, فكان في حبِّها هلاكه.

****

سلمى

روحٌ ترقص معَ الشيطان, لا تكفُّ عن الخطايا

الحرب– الدمار– الخراب– هزيمة الغير

كلُّ هذه الأشياء محبَّبة إلى سلمى، إنَّ سلمى تريدُ إفراغ الجيوب، وتدميرَ القلوب؛ كما دُمِّرت.. فـ (سلمى) تُعاني منذ طفولتها من الإهمال الأسري, فكانَ من الطبيعي أن يتدنَّى مستواها الدراسي. كانت تجلسُ في المقعد الأخير لأنَّ أصدقاءها يظنُّون أنَّ للبَلَادة عدْوى، كما لبعض الخضراوات عدْوى. وكان أبوها يفضِّل إخوتها الذكورَ عنها، وكانت هي مَن تقضي أمور البيت مِن حاجات، فتأخذُ المال وتشتري لهم اللوازم, أو ما يحتاج له البيت. ولمّا كبرتْ سلمى كانت تعامَل معاملة سيئة من إخوتِها الأولاد، وكانت تقوم بأعمال البيت على مَضَض، فكانت تغسل جواربَهم النَّتنة وهي تشعرُ بالقرف، تخيَّل فتاة جميلة رقيقة مثل سلمى تقوم بتنظيف كلِّ ما هو متَّسخ ومقرف ومقزِّز، فكانت تزيل خراءَ القطط، وتطهِّر المكان، إنَّ هذا الأمر لمُقرف ينهاها إخوتُها عن فعل الشيء دون ذكْر السبب، فتظنَّ أنها السبب، وتظنَّ أن ذلك وضع من مكانة المرأة، فمثلًا ينهاها إخوتها عن الخروجِ للتنزه مثلهم خوفًا عليها، ولا يذكرون لها السبب، فتعتقد أنَّهم يمنعونها لكوْنها امرأة، وفوقَ كلِّ ذلك نظراتُ المجتمع التي تراها وكأنه يُنْظَرُ إليها كقطعة لحْمٍ يجب التهامُها. تنظر سلمى إلى فئة الشباب الممثَّلة في الشارع، تنظر إلى سائقي سيارات الأجرة، يا لهم من متوحِّشين، وفوقَ كلِّ ذلك تشعر سلمى بالذنب والأسى كلما ذهبت إلى بيت زوجِ أمِّها الذي كان ينظرُ إليها هو الآخر كلَّما ذهبَت إلى أمِّها نظرات شهوانية. تتذكَّر سلمى جيدًا سببَ انتحار والدها، تتذكَّر عندما كان زوجُ أمها عشيقَها، تتذكَّر عندما كان عشيقها قبل أنْ يتزوَّجها– أعني عشيقَ الأم لا عشيق سلمى–, تتذكَّر جيدًا عندما صعدَ عشيق أمها البيت ودخلَ من الشباك وزنَا بها، وعندما طرقَ أبوها باب المنزل فتحت له سلمى, حاول حينها عشيقُها الهروب, ومن خوفه واضطرابه ذهبَ إلى المرحاض فرآه أبوها، ووقع شكُّه في محله، فقد كان يشكُّ في أنَّ زوجته تخونه فصرخَ في وجْه زوجته قائلًا: أتخونيني؟

قالت له سلمى: إنَّه عشيقي يا أبي, ولا علاقة لأمي بالأمر.

فهي تعلم جيدًا أن الرجل قد يفضح زوجتَه بعد أن يطلقها، لكنه لا يفضح ابنتَه مهْما حدث، لم يصدِّق أبوها ما قالته، وانتحرَ ليهربَ من همِّه وغمِّه، فهو بينَ نارين أو قلْ أمرين, كلاهما مرّ. حزنتْ سلمى على أبيها حزنًا شديدًا، وشعرت أنها السببُ لا أمها، كما عانت سلمى من ضنك العيش؛ لأنَّ أباها كان موظفًا, مات ولم يتركْ لهم شيئًا؛ لذلك كانت سلمى تجذب الشبابَ إليها بهدف استغلالهم ماديًّا. يساعد سلمى في جذبِ الشباب الخمارُ الذي ترتديه، يظنُّ كلُّ مَن رآها أنها مُتدينة لمجرَّد ارتدائها الخمار، ولا يعلمون السببَ الحقيقي وراء ارتدائها له، لقد ارتدت سلمى الخمار لأنَّ ثديها صغير، وبرغم أنَّ ثديها صغير إلَّا أنَّ شكلها جميل وجذاب؛ فشفتاها كخاتم سليمان، وساقاها مثلَ عصى موسى، إلَّا أن مؤخِّرتها كفيلِ أبرهة، ووجهُها أبيض ونَضِر. جذبت سلمى الكثيرَ من شباب آداب فلسفة، وكانت تأخذ منهم الأموالَ وتنجح في الامتحان من خلال الغشِّ عن طريقهم. عجيبٌ أمر المرأة، مؤخرتها سببُ تقدُّمِها!

لقد دمَّرت سلمى قلوبَ كثيرٍ من الشباب، لكن لا عذرَ لها, فهناك من ظلمه الناس فظلم الجميع، وهناك مَن ظلمه الناس فتمسَّك بمَن أحسن إليه وشكره. كانت سلمى لا يعذِّبها ضميرها عندما تدمِّر قلبًا، فهي تؤمن بأنَّ وجودنا ما هو إلَّا نتاجُ تخصيب بويضةٍ بحيوان منوي، وسلوكنا ما هو إلَّا نتاج ما زرعوه بداخلنا.

****

فلسفة (سلمى)

تقول سلمى: إنَّني أحترم ذاتي, لذلك أكذب كذبةً مُحكمة لأُجَمِّل نفسي. ولم تنتبه المسكينة من أنَّ ما يرفع من قدْر الذات هو الصدقُ وفعلُ الخير الناس، فهذه أشياء لا يوبِّخ عاقل عليها أحدًا. تقول سلمى: إنَّ احتقارَ البشر العاديين, أولئك الذين لم يبذلوا قصارَ جهدهم لتحقيق النَّجاح هو في الحقيقة شرفٌ لك. إذا ألقى عليكَ إنسانٌ جاهلٌ السلام انظرْ إليه وحملق، اجعل عينَك تثقبُ عينَه ولا تبتسم، ثمَّ مرَّ من أمامه ولا تردَّ السلام، فهو غيرُ موجود وأنت لست مجنونًا لتردَّ السلام على شخصٍ غير موجود. إذا حدَّثك أحدُهم ليكن شعارُك.. تكلم ولن أراك لأنَّك عدمٌ. إنَّ مَن يقول إنَّ المرأة ذكية إمّا فهمَها أو لم يفهمها تمامًا، أمّا مَن فهمها فقد فهمها إلى حدٍّ ناقص تنقصُه النظرةُ الكلية، ومَن لم يفهمها فقد وصفَها بالذكاء المحض، بينما ذكاؤها في الحقيقة كيدٌ وخبثٌ ومكرٌ. إنَّ الرجال سطحيُّون, والدليل على ذلك تحتاج المرأةُ إلى عدة سنينَ لتفهم حكمةَ الرجل، ويحتاج الرجلُ أن يكون امرأةً ليفهم المرأة، والرجل الذي يظنُّ أنه يخدعُ امرأة مُتوهِّم, حتَّى الذي يخدعها باسْم الحب من أجل قبْلة أو ما شابه ذلك، أقول له إنَّهن ليستْ مُنْخدعات, ولا مانع أن تمثل دورَ الضحية! إنَّ النساء يظهرنَ الضعف وهنَّ في غاية القوة، ويظهرنَ العاطفة ويُخفينَ حقيقتَها وهي الشهوة، مِن الصعب اجتماعُ الجمال والوفاء في امرأة، مِن الصعب اجتماعُ القوة والخير في رجل، إنه لمَن المضحك أنَّ نساء هذا العصر لهنَّ علاقاتٌ مع الرجال أكثرَ من الرجال أنفسهم، فالحبُّ كذبة, إنَّ الحبَّ احتلال، كلُّ مَن يحب إنسانًا يريدُ أن يتملكه، يريدُه أن يحزن لحزنه, ويتألم لألمه، ولو كان يحبه حقًّا لما أراد له أن يتألَّم لألمه, ولا لأنْ يحزن لحزنه، ولكنَّهم يعدُّون ذلك من شروط الحب، والحبُّ في الطفولة يعني أنَّ الحبَّ ليس له علاقة بالشهوة، وسخريتكم منه يعني أنَّكم لا تعرفون سوى الشهوة، إنني لم أجدْ إنسانًا يحبُّ إنسانًا بلا سبب. أحبُّه لأنه ناجح، أنتَ لا تحبُّه، وإنما تحبُّ ارتقاءه بنفسه، أحبَّها لأنها جميلة، أنتَ لم تحبَّها هي؛ بل أحببتَ شهوتك، حتى مَن يقول أحب فلانًا أو فلانة بلا سبب، عندما ننظرُ إلى مَن أحبَّ نجده جميلًا, فلم نجدْ إنسانًا أحبَّ إنسانًا بلا سببٍ وكان

مُعاقًا، وذلك يرجع إلى أنَّ عقله اللاواعي اختار، فأحيانًا نختار دونَ شعور منا، ونقرِّر بناء على هذا التفكير، ولم تلتفتِ المسكينة إلى أنَّ حبَّ الصفات من كمال الذات.

تقول سلمى إنَّ الكثيرَ ينخدعُ ولا يتعلم, أمّا أنا فلم أخدع، ومع ذلك تعلَّمت، فالحكمة لا تنفع إلَّا حكيمًا. ذات مرَّةٍ قالت لها صديقتُها سحر لديَّ سبع أرواح، لذلك لا أُهْزَم. ردَّت عليها سلمى قائلة وأنا ليس لديَّ روح حتى أُهْزَم. ولم تنتبه المسكينةُ إلى أنَّ عدمَ وجود روح لها في حدِّ ذاته انهزامٌ!

تقول سلمى إنَّه لا توجد هناك امرأةٌ أكثر احترامًا من أخرى, بل هناك امرأة تجيد التمثيلَ عن أخرى. جدَّتُنا شهرزاد اختلقتْ ألفَ حكاية ألا يستطعْنَ أحفادُها اختلاقَ بعض الحكايات؟! إنَّ المرأة إذا قويتْ ركلت. استعبدَ رجلٌ قال لامرأةٍ يا سيدتي, وخنثَ رجلٌ قال لامرأة يا ملكتي! إنَّ عددَ الممثلين خارجَ التلفاز أكبرُ بكثير من عدد الممثلين داخله. إنَّ الرجال ذئاب، والأنثى تحب مراوغةَ الذئاب، غريزتُهم هجومية وغريزتُنا استسلامية؛ لذلك يلين الرجلُ عند النظر لجسد المرأة، وحقيقةُ اللين أنَّ ذاك هجومية, ولكنَّها وسيلة, ولا تلينُ المرأة عندَ النظر إلى الرجل لأنه لا استسلامَ بدون هجوم. إنَّني أحبُّ البشر لذلك أكرهُهم، فأنا أنتظرُ منهم الخير والحبَّ فيفعلون الشرَّ؛ لذلك أصبحتُ لا أهتم، لا أهتمُّ.. فمَن تعوَّد على هجرِ الآخرين له لا يهتم، لا يهتمُّ لذلك صرتُ مثلهم؛ بل تفوَّقت عليهم. إنَّ مشاعر الإنسان غيرُ واعية للحدِّ الذي يجعلها تحبُّ مَن لا يبادلها شعورَ الحب، وللحدِّ الذي يجعلها تتحمَّس عندَ سماع إيقاع موسيقى حماسية، أو تخمل عندَ سماع إيقاعٍ حزين. يدافعونَ عن المرأة سواء أكانت ضعيفة أم قوية، ولا يدافعون عن الرجلِ الضعيف لأنَّه ضعيف حقًّا! إنَّها الشهوة، فغالبُ الرجال يحترمون النساء لرغبتهم في الجنسِ عنْ طريق اللا شعور، والدليلُ على ذلك: هل يُعامل ذلك العاشقُ الولهان أخته كما يُعامل حبيبته؟! حقًّا إنَّ الحبَّ حقيقة في المخيلة، وَهْم في الحقيقة؛ فالعلاقة بين الرجل والمرأة ليستْ معقدةً، ومعَ ذلك فهي فاشلة. كلُّ ما في الأمر أنَّ الرجال يريدون نساء أكثرَ أنوثة، والنساء يردْنَ رجالًا أكثر رجولة.

تفضِّل سلمى مصلحتَها على الجميع, وتبرِّر ذلك بقولها إذا قال لي أحدهم أنت أنانية فلا شكَّ أنه أكثرُ أنانية لأنه لو لم يكنْ أنانيًّا لمَا طلب منّي أن أفضِّله على نفسي. تشكُّ سلمى في كلِّ الرجال, وتعتقد أنَّ من سماتهم الأساسية الخيانة, حتى لو تيقَّنت أن الذي أمامها بريء من الخيانة التي اتَّهمته بها؛ فهذا لا يعني أنه بريء من خياناتٍ أخرى. والإنسان الذي يدَّعي أنه مُحترم هل هو فعلًا محترم أم أنه يريد أنْ يشعر بقيمةِ نفسه لدى الآخرين فادَّعى سلوكَ الاحترام؟

****

خبثُ (سلمى)

إنَّ سلمى في حقيقتِها ضعيفة؛ فالخبثاءُ ضعفاء، ألا تراهم يستخدمونَ الخبث لأنَّه ليس في أيديهم القوة! يساعد سلمى على خبثها قانونُ المساعدة عندَ البشر، فالمرأةُ تساعد المرأة, أمّا الرجلُ فيساعد المرأة أيضًا! كما يساعدها- أيضًا- شهوانيةُ الرجل العمياء التي توقعه في الفخ. تقول سلمى إنَّ كوْني مُعقدة لهوَ أكبرُ دليلٍ على أني سأصيرُ عظيمة، فأغلبُ العظماء نفوسُهم شيطانية، والتاريخُ يحكي لنا ذلك، فهتلر الرسامُ كان سببًا في هلاكِ الكثير من البشر، والحجاج بن يوسف الثقفي قتلَ كثيرًا من صحابة النبي, ورمَى الكعبة بالمنجنيق, وكان يبكي بكاءَ الخاشع عندَ ذكر الله, ولا يتهاونُ في حدٍّ من حدوده! كما نجد- أيضًا- تنقاضًا في شخصيات أمراء الدولة الإسلامية، فكانوا يجاهدون في الصباح, وينعمون بين أرجل النساء ليلًا.

تعتمد سلمي في خُبثها على أنَّ الرجل إذا أحبَّ لا يُخبر أحدًا، على عكس المرأة، فكانت سلمى لا تُمانع في الارتباط باثنين من الأصدقاء، ففي مرَّة كانت سلمى تلعب لعبةَ الصراحة مع زملائها الفتيات والشباب، وكان من الجلوس ثلاثة مرتبطةٌ بهم، فسألتها زميلتها ابتهال- وهي تعلمُ جيدًا خبثَ سلمى- لذا أرادت أن توقعها في الفخ، وذلك لطبيعة النساء اللاتي لا يكتفين بالكيد للرجال فهنَّ يكدْنَ لبعضهنَّ البعض أيضًا. سألت ابتهالُ (سلمى) سؤالًا خبيثًا، قائلة: هل أنتِ مرتبطة يا سلمى؟ وما اسمُ حبيبك؟ ردَّت سلمى بذكاء: نعم, مرتبطة بواحد، لكنْ لا يصحُّ أنْ أذكر اسمه، لكنَّه جالس معنا الآن. فظنَّ كلُّ واحدٍ من الثلاثة أنه هو المقصود، فنجت سلمى من الفخ، لكنَّها أرادت الانتقام.

وفي اليوم التالي عندما قابلت سلمى (ابتهال) قالت لها: لماذا لا تردّين السلام؟ فظنَّت ابتهال المسكينةُ أنَّها تسير نائمة، فاقدةً للانتباه, وسلمى لم تلقِ السلام من الأساس، لم تكتفِ سلمى بذلك، بل قالت لها أنْصَحك عندما تُعطينَ سرَّكِ لأحدٍ أعْطِيه لأمين، فظنَّت ابتهال المسكينةُ أن (شروق) صديقتها المقرَّبة قد أفشتْ أسرارها لـ(سلمى)، مع أنَّ سلمى في الأساس ليس لها علاقة

بها، وإنَّما أرادتِ الإيقاع بينهما، وهذا ما حدث، فقد تشاجرتْ كلٌّ من (ابتهال) و(شروق) وتخاصمتَا.

إنَّ ذكاءَ (سلمى) لا يجعلها تكتفي بأنْ تجعل الآخرينَ ضحيةً لها؛ بل ينجيها من مآزق كثيرة أيضًا، فكانت ذاتَ مرَّة تُكلم (علاء) عبرَ تطبيق من تطبيقات التواصل الاجتماعي، فرأى أخوها اسمَ (علاء), فقال لها أأنتِ على علاقةٍ بشاب؟ قالت له باكية بعد أنْ أغلقت هاتفها المحمول: دائمًا ما تظلمونني, أنا أكلِّم صديقتي آلاء.. لا علاء. ثمَّ تركته ودخلت غرفتها وأكملت حديثها معه!

إنَّ خبث (سلمى) لم يقفْ على هذا الحد، فقد كانت تسجِّل المكالمات التى تدور بينها وبين (علاء), وفي مرَّة أمسك علاء هاتفها وسمعَ التسجيلات، فقال لها غاضبًا: ما الهدف من وراء ذلك؟

قالت له سلمي: لأنّي أحبُّك, وأريد أن أسمعَ صوتك. بينما هي كانت تسجِّل المكالمات التي فيها إباحيَّة لتُسمعها لصديقتها (سحر)!

أيضًا, من ضمْن خبث (سلمى) أنَّها كانت تكسب ثقةَ الرجل بخطَّة, وهي هزُّ ثقتِه في نفسه على حسابِ ثقته فيها، فمثلًا عندما يتصل بها أحدُهم تغلق المكالمة في وجهه، فإذا عاود الاتصالَ سألته متعجِّبة: لماذا أغلقتَ المكالمة، وإن لم يتَّصل سألته بحزن: لماذا تغلق المكالمة في وجْهي؟

****

تعرُّف (سلمى) على (حسام)

في قبالة السنة الأخيرة من التخرُّج، حضرَ حسام كعادتِه أولَ أسبوع، وفي أولِ يوم له كانت تجلس جانبَه سلمى، فلفتَ نظرَها نباهتُه وذكاؤه، وأحكي لكم ما حدث في هذا اليوم.

دخل الدكتور عبد الرحمن، فعرَّف نفسَه للطلاب، ثمَّ قال لهم: سأشرح لكم في هذه السنة مادة الأخلاق الفلسفية، وأريدُ منكم التفاعل؛ فالمحاضرة من المفاعلة فتفاعلوا. مَن يُخبرني منكم عن الفرقِ بين هذه الصفات (المجاملة– النفاق– الخير– الشر– الفشل)؟

عمَّ السكونُ داخلَ المحاضرة, ولم يستطع أحدٌ الإجابةَ سوى حسام، الذي قام فقال: المجاملة هي أنْ أقول لك أحبُّك كثيرًا بينما أنا أحبُّك قليلًا. والنِّفاق أن أقول لك أحبُّك وأنا أكرهك. والخيرُ هو الفعلُ النافع للصالح العام. والشرُّ هو الفعلُ النافع للصالح الخاصِّ غالبًا، لكنَّه ضارٌّ بالصالح العام دائمًا، فقد يؤذي أحدُنا نفسه فيكون الشرُّ غيرَ نافع للصالح الخاص لذلك قلت غالبًا. والخيرُ عقل, والشرُّ غريزة, والنفس إذا أضرَّت غيرها فهوَ شرٌّ, وإذا أضرَّت نفسها فهو الفشل.

أُعجِب الدكتور عبد الرحمن بالتعريفات التي قال بها حسام؛ حيث إنها تعريفاتٌ جديدة غير مُعتادة, لم يسبقْه سابقٌ بها، كما أعْجِبت سلمى بذكاء (حسام).

أعطى الدكتور عبد الرحمن كتابًا هدية لحسام، ثمَّ تكلم الدكتور قائلًا: لا إلزامَ على الله في إثابة المطيع وعقاب العاصي. إرادةُ الله المطلقة لا يمنع عليها أن تعاقبَ المحسن وتعفو عن المسيء.

قامَ حسام وقال للدكتور: وأين العدل؟ فاللهُ عادل, وإن فعل فعلًا مخالفًا للعدل إذًا فعدلُه متغير، إذًا فصفاتُ الله حادثة وليست قديمة.

الدكتور عبد الرحمن: إنْ قلنا إنَّ العدل هو مَن أجبر الله على فعْل شيء فقد ألزمَه وأخضعه لفعلِ شيء معين، وهذا لا يجوزُ على الله.

حسام: إنَّ إجبار صفة العدل لكَ على العدلِ لا يدلُّ على أنَّ العدل قهرك، فالعدل ليس بكائن حيٍّ، وإنَّما هو صفة, وإن أخضعتْك صفةٌ شريرة فأنتَ شرير، وإن أخضعتك صفةٌ خيِّرة فهذا دليلٌ على خَيْرِيَّتِك.

الدكتور لحسام: أنتَ تتحدَّث عن جهل، إنك بذلك تخالف مذهبَ الأشاعرة، وتذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة.

حسام: لا يهمُّني مَن قال، ما يهمُّني هو القولُ الصحيح، فقد أتَّبع فرقةً أغلب كلامِها صواب، ولا أتَّبع أخرى أغلبُ كلامها خطأ، لكن ماذا لو توافق بعضُ الصواب الذي هو بعضٌ من الخطأ عندَ الفرقة التي أعتنقُها مع الفرقة الأخرى، فعليه أنا أتَّبع الصواب حينها.

للمرَّة الثانية يلفت ذكاءُ (حسام) (سلمى)، فتقول سلمى في نفسها إنَّه ليس طالبًا عاديًّا, إنه فيلسوف المستقبل.

ارتبكَ الدكتور قليلًا, ثمَّ أخذ يكلِّم الطلاب عن رحلاته وإنجازاته. قام أحدُ الطلاب واعترض رافعًا صوتَه في وجه الدكتور قائلًا: أنتَ يا دكتور تخرج عن المنهج الدراسي, ما فائدة أن تخرج عن الكتاب؟ لا يعجبني شرحُك.

وما إنْ أنهى الطالبُ كلماته حتَّى نادى الدكتور على الأمنِ ليخرجوه خارجَ المدرج، وغضب الدكتور غضبًا شديدًا، فقام (حسام) وقال: اعذرْه يا دكتور, فهو لا يعرف الفرقَ بين الدراسة في المدرسة وبينَ الدراسة الجامعية، فالدراسة في المدرسة ليس فيها أيُّ إبداع, أمّا الدراسة في الجامعة فهي قائمةٌ على بناء الفكر, فأيُّ معلومة خارجية أو نصيحة تقولها لا شكَّ أنَّ حضرتك تريدُ بها بناءَ فكرنا.

بهذا التدخل نجح حسام في تهدئة الدكتور. لكنْ دعني أقول لك إنَّ هذا الحوار أعجب سلمى, وأقسمتْ أن تأخذ رقمَ (حسام) وتتواصل معه، وبالفعل أخذت رقمَه وأخذتْ معه قلبه, ولم تردَّه له إلَّا وهو محطَّم، لكنها لم تستطع استغلالَه ماديًّا؛ فحسام حريص على كلِّ جنيه يكتسبه لأنه يشعرُ بعبء المسئولية.

****

حديثُ علاء في حبِّ (سلمى) على الهاتف المحمول

علاء: كيف حالكِ؟

سلمى: بخير.

علاء (بعدَ سكوت دامَ لثوان): افتحي موضوعًا لنتحدث فيه.

سلمى: هل علمتَ بخبرِ انخفاض قيمة الجنيه؟

علاء: لا الجنيه بيرخص ولا الجنيه بيرفع، نحن من نرخص ونحن من نرفع.

ضحكت (سلمى).

علاء: لا شكَّ في أنَّ ما أضحككِ هي كلمة بنترفع، أنا واثق؛ فأنا أفهم المرأة جيدًا.

سلمى: وماذا تعرف عن المرأة؟

علاء: أعرف أنها عندما تسمع إيقاعًا موسيقيًّا وهي تسير في الشارع تودُّ أن ترقص، وأعرف أيضًا أنَّ المرأة خادمةٌ وسيدة، ويجب علينا نحنُ الرجال أن نُشْعِرها بكلا الأمرين كي تتَّزن العلاقة.

سلمى: وماذا أيضًا؟

علاء: وأحبُّك يا سلمى, هذا أيضًا ما أعرفه عنْ علاقة الرجل بالمرأة، أعرفُ أنَّ علاء يحبُّ سلمى، ويريد أن يتزوجها.

سلمى: صه، فلن أصدِّقك, فالمحرفون للكلام والكاذبون هم مَن يدَّعون الصدق, أمّا الكاذبون الذينَ افتضح أمرهم فقدْ عرفوا المشكلة فيمَن يدعون الصدق.

علاء: أعشقُك يا سلمى، صدِّقيني, وأريد أن أتزوجك وأن أحتضنك، ارحميني داخلَ رحمك، ودعاء بينَ رحمِك مُستجاب؛ حيث إنّي أكون في كامل نقائي، وأنا بين أحضانك سأكرم رحمك، فقدْ أكرمنا الرحمُ كثيرًا، فالرحم كريمٌ يغذّي الطفلَ ويريح الشابَّ, ويلجأ إليه الرجل! أستطيع أن

أتخيَّل الصباح بجوارك, وعيناي اللتان ستُفتحان على عينيك لنعقدَ اتفاقًا.. اتركي لي عينيك ولكِ وردةٌ وقبلة وعناقٌ لا ينتهي, قليلٌ منكِ لا يكفي, هل سقيْتني بلا انتهاءٍ ولا شبع! أخاف على ضلوعك من عناقٍ تبعَ اشتياقًا, يا وجهَ الورد.. هلّا قبَّلت الوردَ على وجنتيك, ومَن يُلام على حبِّ الورد! مَن يُلام على رغبةِ تقبيله.. انطوي بي بلا انتهاء.

أثار الكلامُ سلمى فقالت: احكِ لي قصة جنسية.

علاء: ماذا ترتدين الآن؟

سلمى: بل احكِ لي قصَّة عامة.

علاء: هي كالبركانِ الثائر، وأنا.. كالمحيط الهائج، جذبتُها بعنفٍ حتى استرخت، داعبتها فثارت، ثم سَكِرت، حاولتْ أن تصيرَ هي الفارسة، فتركت لها العنان لتسبح في عالم من اللذة, ارتوت ولكنِّي لم أشبعْ؛ تمدد شيطان الشهوة داخلي حتى جعلني أثورُ بعدَ استرخاءٍ لم يمكث ثوانٍ معدودة، ألهبتني نشوةً ما عشتها من قبل، فأخذتْ تصرخُ وتصرخُ فأثارتني أكثر، حملتُها كطفلةٍ.. وعانقتها كعشيقة، ثمَّ احتضنتُها لبضع دقائق فنامتْ، وهذا ما أنقذها منِّي وأرغمني على التوقُّف.

أريدُك أن تكوني جانبي يا سلمى.

سلمى: وما الثمن؟! لقد تعوَّدت على ألَّا أفعل شيئًا إلَّا بمقابل.

علاء: يا عزيزتي لست وحدَك المادية، أتذكر عندما كنتُ صغيرًا كنتُ أتمنَّى أن أكون ضابط شرطة لأخدم وطني، ولمّا كبرت وعلمت أنَّ سلطة الجيش أقوى, ومرتباته أعلى؛ قدَّمت في الكلية الحربية لأخدم وطني، والسببُ الكامل لو فتَّشنا هو الحصولُ على المكانة العالية والمال الكثير، لكني سعيدُ الحظِّ بعدم قبولي في الكلية الحربية, فلو كنت قُبِلت لما قابلتك.

(حسام) في حبِّ (سلمى)

حسام: هناك ضجيجٌ يملأ حياتي, يسكت اللهُ ضجيج الأصوات, يربِّت الله بيدِه الكريمة على صخبِ القلب فيهدأ, يربِّت بحنان ورحمة, يرتِّب الفوضى دون أن نشعر, تذهب الحياة تجاه الموت فيرسل اللهُ لنا الحبَّ ليُعيد لنا الحياة..

حبيبتي, أنتِ ابنتي، لكني لستُ أباك؛ وإنَّما أنا أمك، لكِ التاج وليَ أنت، أنتِ أكسجين قلبي وروحُ جسدي وهوائي الذي أتنفَّسه، أنتِ غذاءُ روحي, أنتِ الجميلة الرائعة التي حُفر اسمُها في أعماقِ أعماقِ القلب، أنتِ المهذبة المحبوبة التي تنتعشُ بها الروح، لكمْ تمنَّيت أن تسمعي دقاتِ قلبي وأنا أقول لكِ أحبُّك، أترقب القمر.. فأتمنَّى لقاءك ليغيب القمر, وليحلَّ ضوءُ شمسك أيتها الجميلةُ الحسناء شديدة الضوء بالغة الثراء، دمتِ لي أمًّا ودمت لك طفلًا متشبثًا بكِ، وبعد الزواج زوجًا وفيًّا يحنو عليكِ، بداخلي أنتِ ولا أستطيع الوصول إليكِ، صدقيني لا أستطيع فصلَ قلبي عنك، ما يفصلنا عن النور ابتعادُ رأسي عن صدرك, لنْ أقول لك إنَّك ملاك، لكنك بالنسبة لي أفضلُ إنسانة. إنني لا أُؤمِنُ بالكمال، لكني أُؤمِنُ بالجمال، زيديني في الحب حبًّا، وفوقَ الحب عشقًا، أنتِ مجتمعي، وقد جُمعَت حورياتي كلها فيكِ، حيث تكوني تكون الحياة، أتساءل قائلا، لمَ لم يخصِّص مَن وضعوا قواعد اللغة العربية حروف العطف بالإناث!؟

سلمي: كأنما كلامُك شمسٌ يسحرني حديثها, ويبعث داخلي الحب والبهجة.

حسام: وإنْ سألوك عن السحر فقولي لهم إن في عينيك سحرًا لا يبور, وإن سألوك عن السلطة فقولي لهم عيني تسيطرُ على كيانٍ روحًا وجسدًا فتقلب كيانه, ولو كان بينهم أميالُ اشتياق كموجِ البحر لا يهدأ, كقلبِ البحر يمتلئ بالعوالم والتفاصيل, كمسحورٍ وفي عينيك رُقية, لا أرى نفسي إلّا وحيدًا بين آلاف الناس, فقد أصبحوا جميعًا عابري سبيل, وأصبحت أنتِ جميعهم.. أحتضنك بروحي فأشعر بالسلام, كيف لو عانقتُك روحًا وجسدًا! إن حواء التي أخرجتْ آدم من الجنة

تستطيع أن تردَّه إليها بضمَّةٍ واحدة, فقط بضمةٍ. عندما أراك ينتابني شعورُ الغريق, ألفُ شعورٍ في لحظة, كيف لمثلي أن يعانق أو يقبّل ما يحبّ؟ لو كان لي أنْ أقبّل ما أحبُّ لقبَّلت القهوة.. قبَّلت المحبّين.. لقبَّلت الحجر الأسود.. قبَّلتُ المريدين.. لقبَّلت لوازمَ الحبيب محمد قبلةَ المشتاقين.. لقبَّلت كلَّ ما لامس يدَ سلمى قبلةَ العاشقين.. فاللَّهم كلَّ هؤلاء. ليتَ الدقائق أقضيها في قلبِ عينيك كلَّ اليوم, ليتَها كلَّ الأسبوع, كلَّ الشهر, كلَّ العام, كلَّ العقد, كلَّ العمر... ليتها!

سلمي: كأنَّما كلامُك يدان, وقلبي وتر!

حسام: كلُّ الكلمات المهموسة, كلُّ الكلمات التي قيلتْ, كلُّ الكلمات التي عجزتُ عن الإفصاح عنها, كلُّ شيء.. كلُّه لك سلمى. البارحة, رأيتُ طوقَ الورد يزيّن رأسَك, واعجبًا للوردِ يطوق الشمس ويبقى على حالته! أشرقتِ ثمَّ غبتِ في نفْس الصباح, قربًا دائمًا يا الله, ألا إنَّ الله جعل صوتَك بهجة الروح, أمّا عنك فإنَّ الله قدَّر, أرسلك إلى الحياة لتكوني حلوَها في ليلة شتاء مُظلمة وباردة, كنتِ كشمسٍ أسْرِجت في قنديل, وعلِّقَت وسطَ القلب, لم أكنْ أخاف الظلام, عشتُ فيه ومعه كثيرًا حتى اعتدتُه, لكنْ بعدَ ضوئك بتُّ أخاف العودة, ولم أعد أطيقُه, صار موحِشًا, لكنْ مَن يألف الوحشةَ يعتادها كشعاعِ ضوءٍ بدَّد الكآبة وشقَّ الأفق فقسمَ القلب إلى سبعةِ ألوان تسترقُ نجماتِ السماء, صلواتي لله من أجلك فيزداد بريقُها, أشتهي عناقك.. أشتهى قُبْلتك.. أشتهى أن أكون بداخلك.. أريد أنْ أكونَ جنينًا لأكونَ بداخلك كليًّا, ليتني جنين في رحمِك لا أنمو, وأعيش بداخلك إلى الأبد!

لسلمي حسٌّ حسّاس يجعلها تهتاج لأقل إثارة؛ مما جعلها تدمنُ ممارسة العادةَ السرية عند سماعِ كلمات الحب, وعندما يسألها حسام عن سبب تأوُّهِها، تقول له ضرسي يؤلمني. صدقًا أقول لكم لقد استلطفتْ سلمى (حسام) لكنَّها لم تحبُّه حبًّا كاملًا؛ لأنَّ كمال الحب عندها ناقص، لذلك كانت تقول له إنَّ هناك أناسًا يريدون خطبتي, وهذا في حقيقة الأمر غيرُ صحيح، لكن هذه حيلة تستخدمُها الفتيات لصيْد العريس، فإنْ كان يحبها تقدَّم لخطبتها، لكنَّ حسام كان يحمل

أعباءً ثقيلة على عاتقه؛ لذلك قال لها ارْفُضيه، لكني لنْ أستطيع أن أتقدَّم لخطبتك بسبب ظروفي المادية، لكنَّه في واقع الأمر لن يتقدَّم لها نهائيًّا, والسبب سحر صديقةُ سلمى التي أحبَّت حسام بصدق، بسببِ ما كانت تسمعُه عنه من سلمى، وتعاطفتْ معه, وأرسلت له عبر موقعِ التواصل الاجتماعي التسجيلاتِ التي بين سلمى وعلاء، والتي كانت سلمى ترسلها لها, وصارحت حسام بحبِّها، فقال لها: ابتعدي عنّي, ولكِ منّي اللا حبَّ واللا كره، أحميكِ من كرهي بعدمِ حبّي، إنَّ مَن عرف قلبي عنْ طريقها الحبَّ هي مَن عرفَ قلبي عن طريقها الكره.

لم يرحِّب حسام بحبٍّ جديد؛ لأنَّه لا بديل عندَ الأوفياء, وقال:

لي الخديعة ولها المخادعة..

لي الآلام ولها المرح..

لي المذلة ولها العزة..

لي السبع العجاف ولها الفرج..

آهٍ, لقد خُدعت.. لقد قُهرت.. لقد هُزمت، لقد هُزم رجلٌ من امرأة، إنَّ هذا يغيظني، كره.. كره.. كره.. الدناسةُ الكبرى دناسةُ الأدناس, يجبُ أن أكرهَ الجميع حتى أعيشَ في هذه الحياة، أخذتني لدنيا الأحلام ولقد حلَّقتُ معها وحلَّقت، وفجأة هويت، إنَّها كانت تريد رفعي من أجل سقوط أقوى الأشجار المُثْمرة يعرّيها الخريف, تهدِّدها الصواعقُ جافَّة ويابسة, ضعيفة الأطراف, ويأبى الهواء إلّا أنْ ينثر الترابَ عليها! هكذا هو التعاملُ مع الناس, وكأنَّ في صدري حبلَ حطبٍ مشتعل, وغابات تحترق, وطيورًا فزعة, ومخلوقاتٍ تهرب في كلِّ اتجاه. رائحةُ الموت أشمُّها لتذب كلُّ الأماني والأحلام كالرياح, لا قيمة لهم عندي, بدونها يأبى الجسدُ إلا أنْ يعذِّبني حتى يرتاحَ قلبي, يأبى قلبي إلّا أنْ يوجعني حتى أصلَ إليها, تأبى عيناي أن تنامَا بسلام, يأبى العقل أن يهدأ عنِ التفكير بها, تأبي الطرقات إلّا أنْ تطولَ.. وتطولَ وهي في الخاطر كمنزل باهتٍ يشتهي ألوانًا تزيّن حليتَه, ولهُ الحقُّ كطريقٍ موحل يشتهي التعبيدَ, ولهُ الحقُّ كعابرِ سبيل يشتهي

السلامَ والسكن, وله الحقُّ كإنسانٍ حلَّ ضيفًا على بيتِ شحٍّ فلم يحصل على أيِّ حقٍّ! أنا ضيف عندَ الحياة.. إلّا أنَّ الحياة لا تُحسن معاملةَ الضيوف, ولا الإحسانَ إليهم!

ثمَّ كيف تفعلُ هي معي هكذا وأنا الذي أحمل لها كلَّ ما في صدري, شربتُ البعدَ مرًّا, والهجرَ حنظلًا. وأجدني مرغمًا على تجرُّع الصبر, ما يؤلمني أني اكْتشفت أنني كنت سلعة, وما يزيد من ألمي أنَّ مَن اشترَى هو مَن باع! نعم تجارة.. لكنْ تجارةٌ بقلوب البشر.

****

ضجيجُ عقل

مِن غرفةٍ مظلمة يراقب العالمَ, يعزفُ على أوتارِ الصمت, يظنُّ أنه قويٌّ لأنَّه وحده, بينما لا أحدَ يقف بجانبه.. لا أحدَ هنا, زنزانةٌ في صدره, وغرفةٌ انفرادية لها أربعةُ جدران سوداء, سكنها الليل, وسقفُها مُظلم, وحوائط باردة, وبابٌ حديد محكَمُ الإغلاق.

يحدِّث نفسَه قائلًا: لا أعرفُ ما الذي أنا فيه, غارقٌ بلا انتهاء, والواقعُ صارَ طعمُه مرًّا, والوقت لا يمرُّ, تتباطأ العقارب.. تمرُّ الساعة وكأنَّها ساعات, وتمرُّ الدقيقة وكأنَّها دقائق! من المفترض أن تدقَّ الساعة على رأس كلِّ ساعة وهذا ما لا يحدث, فقد صارتْ تدقُّ عندَ رأس كلِّ دقيقة, وتدقُّ على رأس الحقيقة! لقد افترقنا. يمرُّ الوقت عليَّ وكأنَّه يمرُّ فوقي, أحاول أن أتجاهل حزني لأعيش الحياة, فتتجاهلني الحياةُ لأعيشَ بداخلي مرَّة أخرى.

في البداية, حدَّث حسام نفسَه بالرجوع إلى سلمى، وتقبُّل خيانتها؛ لشدَّة حبِّه لها، وقال اللهمَّ إن كان النقيُّ للنقيِّ فاجعلها نقية, أو اجْعَلني غيرَ نقيّ.

يتمدَّد طيفُها بجواره, يعانقه دونَ وجَل, فيستسلم لذراعها, يستنزفُ بلا رغبةٍ منها.. ولا طلب, مستعدٌّ أن يمنحَها أنفاسَ صدره فيُصاب بالاختناق, يمنحُها دمَه فيُصاب بالهزال, يمنحها دقاتِ قلبه ولوْ سيفارق الحياة.

كانت– ومازالت– الأصوات تعبرُ الطرقات عبرَ الصَّمت.. الليل؛ ليسمع صوتَها الوهمي.

لا يزال الليلُ قائمًا بصدر حسام, ولا يزالُ شاردًا منه فيه, وينشقُّ صدرُه بالصدوع, وتآكلتْ أطرافه كمَن يجوب الشوارع مستندًا على ضلوع صدرِه, وصوتُها لا يزال يتردَّد بصدره إلى الآن! هكذا يكون صدَى الصوت في الأماكن المهجورة, مزيدٌ من الضعف.. مزيد من شعور الاستنزاف غير المُنتهي, رغمَ غيابها ظلَّ الفؤادُ معها كما كان في وجودِها لا يستطيع فكاكَه.

أنا لمَ أصرْ في بُعدك إلّا كصحراء, وفي هجرك إلّا كحطبٍ يحترق, وصبارٍ يوخز شوكَه, وجفاف في حلقي, وجدب في أرضي, ووحدة تختصر المشاعر..

ثمَّ أفاق فحدَّث نفسَه بالانتحار بسبب حنينِه إليها, فقال: أعلم أني أريدُ أن أنتحر, وأعلم أني لي رغبةٌ في عناقك، وأعلمُ أنَّ مَن يُقبل على الانتحار لا يكون عنده رغبة، وأعلمُ أني لو عانقتك لمَا انتحرت!

ثمَّ سرعان ما أفاقَ من وهمِّه ومذلَّته وقال: لا قربَ ممَّن لم يقفْ بجانبنا وقتَ الكرب.

وصارتْ لحسام عادةٌ, وهي أنه كلَّما عاد من العمل صعدَ فوقَ سطح المنزل وفكَّر في حاله, حتَّى عرفتِ النجوم التي تسكن فوقَ سطح بيته ملامحَه، ويحضر كوبَ قهوة, نعم.. قهوة راكدة عميقة كأعماقِ المحيط, هادئة كقاع البحر, رائحتُها كرائحةِ الليلة الصعبة, ولونها كظلمة قلبه منذُ رحيلها, همومٌ طويلة بالليل يطويها بزوغُ الصباح, ويفتحُها الغروب. الأيام كلها تشابهت؛ كلها عديمةُ القيمة, لا طعمَ لها؛ مِن العمل إلى الأرق إلى إغفاءٍ يتلوه عملٌ آخر سيّئ هو اجتماع الإجهاد الجسدي بجوارِ المتاعب. ينام كالموت, ويستيقظ كنصفِ حياة, اليوم– وكلُّ الأيام– تمرُّ بلا معنى.. بلا قيمة, وتنعدم اللذّات, كبيرها وصغيرها, وشعور اللاشيء صار كلَّ شيء.

لقدْ عانى حسام من تشتُّت الأفكار, كما حدثَ له خللٌ في تركيزات ناقل كيميائي عصبي في المخ هو الدوبامين؛ حيث ازدادت نسبةُ تركيزه ونشاطه في مناطق معينة تسبَّبت في ضلالات، فكانَ يعاني من فكرة الاضطهاد, وأنه محلُّ نظرِ مَن حوله، وأنه مراقَب بكاميرات، كما صار يجمع العلبَ الفارغة ويتبرَّز خارجَ دورة المياه، كلُّ هذا بسبب الإهمال الأسري وبُعْد الأصدقاء. ولمّا خانتْ سلمى (حسام) قرَّر أن يتكلم مع أصدقائه ليخرجوه من الحالة التي صار فيها، وكان قدْ صنع مجموعةً وسمّاها "أصدقاء إلى الأبد"، فلمّا أراد الاستعانة بهم دخلَ المجموعة فلم يجد منهم أحدًا، كلُّهم خرجوا من المجموعة, فخيَّم الحزنُ عليه بسببهم وبسببِ سلمى, التي لا أرى

مُبررًا لها في تدميرِ القلوب، فلكي تواجِه بشاعةَ الحياة لا تحتاج لأنْ تكون شريرًا، يكفي أن تكونَ ذكيًّا.

لم يجدْ حسام له صديقًا سوى حازم, تلك الشخصية الوهمية التي اختلقَها عقله لزومًا وفرضًا عليه، والتي هي على نقيضِه تمامًا. وقد كان حسام كثيرَ البكاء بسبب ما يحدث له، تلك الدَّمعات الحارقة لا أستطيع وصفَها، كلُّ نظرةٍ مؤلمة, كلُّ همسةٍ مؤلمة, كلُّ دمعة حارقة.. كلُّ هذا بسببِ الأسرة والأصدقاء وسلمى، فلا سلمَتْ ولُعِنت لعنًا كثيرًا, كالنسر أخذتْ قلبه وحلَّقت.. حلَّقت بعيدًا, وقلبُه بين براثنها, وذاكرتُه لا تنسى ما معها, فكيف بها؟

عانى حسام مِن الشعور بالعظمة، فكان يقول إنَّ أفضلَ الناس قِمَّتُه قاعي، فقمتي السماءُ وقاعي قمتُهم، بجانب ذلك كان حسام يسمع صوتًا يحثُّه على الاكتئاب والانتحار وكراهية المرأة والإلحاد! يقول حسام متألمًا في وسطِ ضجيج عقله: كلَّما سمحتُ لهم باقتحام قلبي أَفحموه وجعًا. يا أمي, لماذا ربَّيْتني على أنْ أكون خلوقًا في عالمٍ لا يعترف بالأخلاق؟ إنَّ الحياة هي الألم, والألمَ هو الحياة، لا أجدُ شيئًا جديدًا في هذه الحياة سوى تنوُّع أساليب الألم، إنَّني أعاني منذُ ولادتي, لطفًا بي أيُّها الإله القاهر، الأوجاع متعدِّدةٌ مُصطفَّة، ما إنْ ينتهي أحدُها حتى تأتي الأخرى، فإذا ما أوشكت على الانتهاء والموتُ قهرًا اختفتِ الأوجاع, حتى إذا ما أقبلت على المعافاة جاءتك مسرعة، فهي لا تريد موتَك ولا تريد شفاءك؛ هي تريد ألمك. سكران إلى الحدِّ الذي يجعلني أشربُ الخمر ولا يزداد سُكْري، إنَّ كثرة الأوجاع والحسرات تجعلك تتجرَّع السمَّ دون أنْ تشعر بتمغُّص البطن، إنَّني أودُّ إسكاتَ العالم, وأولُّ ما أودُّ إسكاته دقاتُ قلبي، أتساءل قائلًا: لمَ لمْ تمت عندما تمزَّقت من الداخل؟!

الهدوء.. أريد الهدوء.

فيَا مَن تطالبون بحقوق المثليِّين, أنتُم عظماء.. اصمتوا قليلًا.

ويا مَن تهاجمونهم, أنتم عظماء.. اصمتوا قليلًا.

يا مَن تهاجمون الدولة, أنتم عظماء.. اصمتوا قليلًا.

ويا مَن تدافعون عن الدولة, أنتم عظماء.. اصمتوا قليلًا.

يا مَن تهاجمون الأديان, أنتم عظماء.. اصمتوا قليلًا.

يا مَن تدافعون عن الأديان, أنتم عظماء.. اصمتوا قليلًا.

كلُّكم عظماء, ولا مثيلَ لكم، لكن مِن فضلكم.. اصمتوا قليلًا.

إنَّهم يكذبون ويصرُّون على كذبتهم– حتى مع أنفسهم– لكي يتذكروا كذبتهم، سريعو البديهة, يمتلكونَ ذاكرة قويةً وخيالًا واسعًا، يجيدونَ التمثيلَ على أنفسهم وعلى غيرهم، متشبّثون بكذبتهم عندَ افتضاح أمرهم، مُجيدو الكذب هُم.

لكلِّ واحدٍ منّا عدةُ بكارات؛ بكارةُ القلب يمزقها الحبُّ الأول، وبكارةُ العقل يمزقها التبعية، وبكارةُ النَّجاح يمزقها الفشل، فإذا فشلتَ مرةً صار الفشلُ أمرًا عاديًّا وغيرَ مؤلم. إنَّ البكارة ليست للرحم وفقط، والوطءَ ليس للمرأة، فالحياةُ قد وطئتنا جميعًا! أشعرُ أنَّ جوفي بحاجةٍ إلى أن يُرْوَى، هناك ثَمَّة شيءٌ ما ينقصني، شيءٌ غير الماء, إنَّه ينقصني جدًّا وأنا بحاجةٍ إلى هذا السائل، لطالَما قلتُ لن أخسرَ لأني أردتُ الفوز، لنْ أفشل لأني أردتُ النجاح، لن أتراجعَ لأني أردت الإقدام.. والآنَ أقولُ لن أعيشَ لأني أريدُ الموت، حتَّى ما يسمونه بالشهوة لم أعدْ أشتهيها، في داخلي وجعٌ لو انتقلَ إلى غيري لم يتأوَّه لأنَّه سيموت مباشرة، علي أن أتجرَّع آلامي بصمتٍ وإلّا أزعجهم بصوتِ تأوّهي. إنَّ كثرة الإحساس تُميت الإحساس، وكثرةَ التفكير تشلُّ العقل عن التفكير. إنَّ الحياة معركة، الهروبُ منها موت، والبقاءُ فيها ينتهي بالموت! عندما تشيخ الروحُ تصبح الحياة باهتة، باهتةٌ هي الحياة، حينها أدركت مؤخَّرًا أنَّ الطفل الذي بداخلي مهزومٌ، أيقنتُ مؤخرًا أنِّي بالنسبة لهم أضْحوكة، لقد طعنوا الحوتَ المُحب، وأقنعوه أنه لو تمَّ اصطيادُه وتحويلُه إلى تونة سيكونُ أفضل، فتقبَّل الطعنات ورحَّب بها, ولم يدركْ حينها أنهم سيأكلون التونة، وإنه بمجرَّد تحويله إلى تونة سيصيرُ ميتًا. لطالما ظننتُ فيهم السوء، ولطالما كان سوءُ ظنّي فيهم حُسنَ ظن، حتَّى صديقي الذي ساعدته كثيرًا تركني، وبينما أنا أساعده قال للناس إني خادمُه، كلَّما أحسنتُ الظنَّ جاءت النهاياتُ لتثبت أنَّ سوءَ الظن وقايةٌ ومنجاةٌ من كلِّ

ضرر، وكلَّما أسأتُ الظنَّ رماني الجميع بتُهمة الشك، إذًا ليبقى سوءُ الظن الذي يقيني من الضررِ وليحترقَ الجميع. أنا شكَّاك, والشكُّ في البشر حُسنُ ظن؛ إذْ إنه يجب اليقينُ في سوئهم. أنا ناقم على كلِّ شيء, ولا أرى في العابدِ إلَّا النفاق، ولا في الزهدِ إلَّا الرجعية والتخلف، ولا في رجل الدّين إلَّا المكرَ والخداع، ولا أرى في الصديق إلَّا الغدر، ولا أرى في الحبيب سوى الخيانة، ولا أرى المغرورَ إلَّا تافهًا، ولا أرى الحبَّ إلَّا كرهًا، لكنه متنكِّر. يقرؤون من أجل قتال فكْرِيّ، ويمارسون الرياضة من أجل قتال عضلي، ألا ينبغي عليهم أن يقرؤوا من أجل أن يرتقوا، ويمارسونَ الرياضة من أجل أنفسهم، لكنَّها غريزة الشرِّ المترجمة في عدَّة غرائز، لطالما حلمتُ بعالمٍ سلاحُه الحقيقي العلمُ وليس القتل والفتك، لطالما حلمتُ بإزالة الحدود ونسيانِ الخلاف، لكنْ ماذا يفعل التمنّي في هذا الواقع البَشع إلّا المزيد من الآلام! أريد أن أكون أشرسَ، مَنْ لِي وَقْتَ حُزْنِي؟ مَنْ لِي وَقْتَ ألمي؟ لا أرى إلَّا مَن ينتظر سقوطي، ما الفرق بين الحبِّ والكره؟ ما الفرقُ بين القرب والبعد؟ غدًا يتَّسخ الأبيض فيصير أسود.

مُكرَهًا أسقط مُكرهًا, كقطرِ المطر وقد تخلَّى السحاب عنه فهَوَى سقوطًا متأرجحًا ومترنّحًا! تنْهرني الرياح لأجدَ نفسي مرتطمًا بالأرض, غارقًا في جدبها أو وحْلِها, أو أرتطم بسطح بناء أو على جبين عابر, ينفضني وكأنَّني متشرِّدٌ وتعلَّقت بثوبه الأنيق أودُّ أن أسقط في بحر يحركني كالموج أو يركدني في القاع, أو ينتهي بي الأمر بخارَ ماء, أو أسقطَ في نهر فأجري جريانه طوعًا أو كرهًا أو أصيرُ محيطًا فأصنعُ الأمواج وأقلِّب الأجواء في داخلي أو في ساحلي, أصنع الأعاصير في جوفي, وأهدِّد كيانَ أيِّ شيء. النجاح ليس له سقف, والهاوية ليس لها قاع, أسقط سقوطًا بلا نهاية, سقوطًا لا ينفد.. لا ينتهي! اللعنةُ على هذا المجتمع الذي لا يُنجب إلّا بؤسًا, ولا يحصد إلّا يأسًا! غدًا العيد.. وأنا لست سعيدًا, غدًا العيد.. لا أريد حزنًا, لا أريد همًّا, لا أريد بكاء, وسيحدث كلُّ ما أريد. عندما أمشي في الطريق أجرُّ قدمي كمَن يحمل العالم على كتفيه, وجفني ينغلق كمَن يحمل العالم فوقَ جفنيه لا كتفيه!

سمعَ حسام صوتًا يقول له إنَّ النصرَ حليفُ الشرِّ, والحقُّ والخير والفضيلة قضايا خاسرة، إنَّ الطيبين مجرَّدُ شواذ، سيتمُّ طحنُهم في مطحنةِ الحياة، يجب أن نواكبَ شرَّ العالم بما هو أشدُّ فظاعة, وأكثر شرًّا.

حسام سائلًا صاحبَ الصوت: مَن أنت؟

صاحبُ الصوت: اسمي حازم؟ لقد استغلَّك البشرُ الأنانيون، عليك أن تكون شريرًا مثلهم.

حسام: كلُّ شيء فيه خير، حتَّى الأنانية فيها جانبٌ خيِّر، فالطبيب الذي يعمل من أجل جمع المال والشهرة هو بذلك أفادَ واستفاد، أفادَ بأنه كان سببًا في شفاء مريض، واستفاد بالمال والشهرة، أمّا عن أنانية الحب فعليك ألَّا تغضبَ من أنانية أحدهم، فلو لم تكنْ أنت أنانيًّا، لما طلبتَ منه أن يفضِّلك عن نفسه، ما يزعجني هو الخيانة.

حازم: هشٌّ أنتَ أمام العالم، لا شكَّ في أنها أخذتك إلى قمَّة السعادة، وألقتْ بك إلى قاع الحزن، مشكلتُك يا صديقي أنك تريدُ النجاح ولا تفعلُ كما يفعل مَن وصلوا، فلا أنتَ بالمستسلم ولا بالواصل!.

حسام: إنَّ عدم سعيي للنجاح في حدِّ ذاته استسلام، عليَّ أن أجتهد فتلك اللحظة تستحق، إنها تلك اللحظة التي أقرِّر فيها أن أرتقي، إنَّها تلك اللحظة التي تعلو فيها همتي، إنها تلك اللحظة التي أكاد أُجَنُّ فيها من فرْط شغفي على النجاح، إنها تلك اللحظة التي أصرخُ فيها بوجه العالم قائلًا.. أنا هنا.

حازم: غشٌّ.. خداعٌ.. كذب, هذا العفنُ في الحياة, أمازلت تريد أن تجتهد؟! أمازلت تريد أن تستمرَّ في هذا المستنقع؟! عليك أن تكرههم جميعًا، وتنتقمَ منهم, ثمَّ تنتحر. لا تكن مثلي, إذا أردت سقاءً باردًا فلا تنزل إلى قاع بئر أحدهم, فالبئر الذي تظنُّ أنَّه أنقذك من الموت عطشًا سيقتُلُك وحيدًا منعزلًا في قاعه.

حسام: للكراهية طاقة, وللحبِّ راحة، فاعدلْ؛ إنَّ كوْنَ غشَّهم يغضبني يجعلني لا أكون غشاشًا، كما أنَّ النجاح الكبير ما هو إلَّا ردة فعلٍ لفشلٍ كبير كان سيحدُث, أنتَ لا تعرف ولن تعرف ماذا فعل الحبُّ بي! كيف غيَّرني.. وكيف أدخلني في اكتئاب, ودفعني دفعة قاسية, شعورٌ باليأس لو دامَ الطقس على حالي سيموتُ الناس بردًا, أحسستُ بآلام العالم حتى تلك التي لم أذقْها, لن تعرف الكمَّ الهائل من الحزن الذي يغمرني, كيف تغيَّرت مشاعري وأحاسيسي تجاه المخلوقات حولي, لن تعرف كيف.. وماذا أصبحت!

حازم: اسمعني, أمامك خياران إمّا أن تهربَ من البشر، أو تقاتلهم. لكن لو هربتَ منهم فما الذي يجبرُك على البقاء بدون هدف.. بدون مشاعر! إنسان وحيدٌ مكتئب, ولو قاتلتهم فما الذي يجبرُك على حياةٍ كلُّها قتال واضطرابات وتوتر؟! ستقول لي صراعٌ من أجل البقاء، وما فائدة البقاءِ طالما سأعيشُ في حالة اضطراب! أراك مغمومًا حزينًا فأعطيك الحلَّ رغم أنّي لا أعرف قصَّتك.

حسام: قصتي تتلخَّص في أني قلتُ لها قلبي ملكٌ لكِ، افْعلي به ما تشائين، وقد شاءت تحْطيمه، تمسَّكتُ بها فتركتني، عاهدتُها على الحبِّ فخانت، وعاهدتُ نفسي على الحزن عليها فوفَّيْت، شئتُ أن أحبها وتحبني، لكنْ شاء الله ما لم أشأ، فنفذتْ إرادته, وسهمٌ تلقَّيته بعين فؤادي ففُقِئت؛ كي لا يصيب حبَّنا فيموت، فماتَ الفؤاد من أجل حبٍّ ما هو إلَّا أكذوبة، هي خائنة وأراها في كلِّ النساء، لذلك كلُّ النساء في نظري خائنات، إنَّنا لم نقترب حتى نفترق، لم تقترب هي مِن قلبي حتى أقول إنَّها فارقتني، ما الفرقُ بين حبِّ المرأة وحبِّ الجوكر؟ في الحقيقة لا أجدُ فارقًا سوى أننا نحبُّ الجوكر لصراحته، ونحبُّ المرأة من أجل شهوتنا.

حازم: أيقنت أنَّ سببَ الشرِّ في العالم شيئان, وهما؛ الأنانية والمرأة، قاتلِ الأنانيةَ بحبِّ الغير، وقاتلْ شرَّ المرأة بنظرةٍ واحدة مجرَّدة من الشهوة، حينها ستجدُ أنَّ كيدهن واهنٌ, لا يعظم إلَّا على مُشتهٍ، لا أجدُ إهانة للمرأة أكثرَ من وصْفها بامرأة، ولا أجد فخرًا للذكر أكثرَ من نعتِه بأنه رجُل،

ألَا تصدقني.. جرّبِ اعْكس الوضعَ؛ قلْ للمرأة يا رجُل، وقلْ للرجل يا امرأة؛ ستفرح المرأةُ ويغضب الرجل.

حسام: أصبحتُ لا أحتاج إلى مجهودٍ لفهم المرأة، كلُّ ما عليه هوَ أني أسأت الظن، يصرخنَ قائلات العالمُ سيّئ وهنَّ بكلِّ هذا السوء. بالله عليكم أخبروني ما معنى السوء؟ لعلّي أن يكون اختلطَ عليَّ الأمر! عديمات الشخصية مُصطنعات القوة مُدَّعيات الشرف والفضيلة هُن. حقًّا إنَّ مَن يأمَن مكرَ المرأة يقعُ في الفخ، كما صارَ الحبُّ في وجهة نظري تقاربًا عقليًّا لا قلبيًّا، فالحبُّ لم يُخلق لاثنيْن بعينهما، فقد يحبُّ أحدنا مَن يذبحه! وغالبًا ما يحبُّ الرجل معذبتَه.

حازم: إنَّ المرأة أرقُّ من الملاك، وأحطُّ من الشيطان، تطوَّر صدرها ليلجأ إليه الرجل, حقًّا ما أطهرها وما أقذرها! شيءٌ آخر أريدُ أن أقوله لك يا صديقي، أنت لا تكره المرأة؛ أنتَ تتكلم عن غضب.

حسام: بل أكرهها.

حازم: وهل تكره أمَّك؟

حسام: بل أحبُّها.

حازم: إذًا, فأنت تحبُّ المرأة، وكلامُك ما هو إلَّا غضب.

حسام: وكيف لي أنْ أكرهها وهي أكرمتني؟

حازم: لأنْ تكون امرأةً لهي مقدِّمة لنتيجةٍ إجرامية، فحبيبتُك التي خدعتك وحطمتك عندما ستصيرُ أمًّا ستُكرم أبناءها، وسيحبّونها، لا تتعجَّب؛ فإنهنَّ يغيّرن وجوههنَّ الظاهرة بالمكياج، ووجوههنَّ الباطنة بالنفاق، إنَّ لكذبِ المرأة بريقًا، فلا تُخْدَعْ، وبريقه شهوتُك وحبكتُهن القوية للكذبة عندما تيقَّنت المرأة أنَّه لا انتصارَ لها على الرجل بالقوة؛ كادتْ وتدلَّلت.

حسام: أعترفُ أنَّ المرأة فيلسوفة، لكنَّ فلسفتها فارغة، وأعترفُ أنها متفوقة على الرجل، لكن في أمرٍ واحد؛ وهو حَبْك الكذبة.

حازم: إنَّ المرأة متفوِّقة على الرجل فعلًا، فإنْ أنكرت فماذا تقولُ في النساء المتفوقات على الرجال؟

حسام: إنَّنا دائمًا ما نقعُ في مغالطة التَّشبيه، فنقارن أفضلَ امرأةٍ بأسوأ رجل، ولو قارنّا الأفضل هنا بالأفضل هنا لوجدْنا أنَّ الأفضليةَ للرجال، وأنَّ لهم الغلبة. أتعلمُ يا صديقي أنَّ العنصرية ليست سيئة، وإنَّما السيئ هو نوعُ العنصرية؟! فالبشرُ في الأصل مُعَنصران إلى ناجحٍ وفاشل.

حازم: أتعلمُ يا صديقي أنَّ الأصلَ غير الواقع، فالأصلُ قد تمَّ تشويهُه ليظهر لنا هذا الواقع، فالأصلُ في الرجل الشجاعةُ والهيبة والقوة، ومعَ ذلك إن صرختِ المرأة في وجهه أرْبَكته!؟ آه, لقدْ نسيت أنَّها الشهوةُ اللا واعية التي تجعلها تركع, أو لعلَّهم أفهمونا الواقعَ خطأ، فحكوا لنا عن شجاعةِ الرجل، ولم يحكوا لنا عنْ شجاعة المرأة، حكوا لنا أنَّ الفضيلة هي الأصل, والواقعُ يقول إنَّ قلبًا قاسيًا أصلُه الغلظة، وقلبًا طيبًا أصلُه الرِّقة، لكنْ قلْ لي يا صديقي عندما يمتنع أحدهم عنِ الشَّر، هل هذا كان لحبِّه للخير أم لأنَّه ليس له نصيب من القسمة؟

كلُّ خيرٍ وراءه شَر، كلُّ تضحيةٍ وراءها خسارة، فهي خيرٌ من جهةٍ وخسارةٌ من جهة أخرى، أقسمُ أنَّني غيرُ راغب في الحياة، ولا أخشى الموت، حاولتُ أن أعانق الموت كثيرًا، لكنه رفضَ مُعانقتي، الحياة تغلق أبوابَها في وجهي، لكنَّها سرعان ما تمسكُ بي وتفتح أبوابها حقًّا. إنَّ الحياة تدْعو إلى الموت، والموت يدعو إلى الحياة، أعرفُ نهايتي؛ ستكون نهايةً لذيذة بجرعة سمٍّ شهيَّة، أو لعلَّها تكون نهاية رومانسية أسقطُ من أعلى فأحتضنُ الأرض، لكَمِ اشْتهيت هذا العناق, أو لعلَّه يكون انتحارًا بسببِ الوفاء والإخلاص، أحتفظُ بأنفاسي وأخلصُ لها، فلا أدْخِل نَفَسًا ولا أخْرِج نفَسًا؛ فأموتُ مختنقًا، وهذا ما أسمّيه بانتحار الوفاء.

خدَعونا فقالوا إنَّ الحياة رائعة، خدعونا فقالوا لولا الحزنُ ما عرفنا السعادة، إنَّ مَن قال هذه الجُملة كان واحدًا من اثنين: أحمق أو محتال؛ إذْ إنَّ عدمَ تسمية الشيء لا تنفي وجوده، لو كنا سعداءَ على الدَّوام لكانتِ السعادة أمرًا طبيعيًّا لا يحمل اسمًا، والشيء يبرز بضدِّه, لكنَّ الخير ليس في الضدِّ؛ فضدُّ الجَمال القبح, وضدُّ الخير الشَّر, وضدُّ السعادة الحزن.

حسام: عليك أن تعلمَ يا صديقي أنَّ العقبات سَتهَبُ لك قوةً وسعادة، إذا تجاوزتها عليك أن تعي جيدًا أنَّ الحياة لا تستحقُّ الحزنَ ولا الفرح، لكن ذاتك تستحقُّ السعادة والفرح، اعلمْ أنهم كلهم تركوكَ وتركوني، ولم يبقَ معنا سوى قداستنا. علينا أن نضمِّد جروحنا، ونعالج أجنحتنا، ثمَّ نحلِّق.. نحلِّقُ بعيدًا عنهم, نحلِّق دونهم، فتلك هي القداسة الأخيرة, الطهارة من أغيار القلوب, ومِن وَسَخ الحياة. انسَ جسدَك ودَعِ الروحَ تُحلق، وردِّدْ كلماتك واسبحْ وانسجم.

حازم: أخافُ وأنت تردد كلماتِ الحبِّ أن تجرح روحَك امرأةٌ, لا تأمنهنَّ؛ فلو كانت لي حيوات سابقة فأنا لا أتذكَّر أيَّ حدثٍ منها, لكن لا شكَّ أنَّ امرأة ألحقتْ بي الأذى؛ لذلك ولدتُ أكرهُهُنَّ.

حسام: أليس لك شاغلٌ إلَّا المرأة؟!

حازم: لَكَمْ أنا عنصري، دائمًا ما أسبُّ النساء الفاسدات، حسنًا لن أسبَّ النساء، وسأسبُّ الرجال أبناءَ الفاسدات، اسمعْ منّي.. لا فرقَ بين المرأة والبقرة سوى أنَّ البقرة تسمنُ لذبحها, والمرأة تسمن لوطئها. إنَّ المعوجَّ يقوَّم بالشدة، لذلك لن أرفقَ بالقوارير، فهي معوَّجة، أتكلم عن المعوج أخلاقيًّا، وليس على قطعةٍ خشبية، يجب علينا نحنُ الرجال أن نؤدِّب النساء، ولا يعني هذا التَّعالي، إنني لا أعيبُ على المرأة لأنها امرأةٌ فهي لم تختَر، لكني أقول الحقيقة أنَّ الأفضليةَ للرجل، أنا لا أعيبُ على مَن ولِدَ معاقًا لأنه ولِدَ معاقًا، لكنَّ الأفضلية ستظلُّ لسليمِ البنية مهما تعاطفنا مع المُعاق.

حسام: قلَّبت عليَّ المواجع، فأنا لم أرَ المرأة عطوفةً سوى في غرائزها، لكن هناك أشياء للنتيجة فيها درجات, وإن كان سببُها سلبيًّا، فمثلًا الطالب الذي نجحَ بالغشِّ هو فعليًّا ناجح، لكنه غير محصِّل لمَا درسَه في نفس الوقت، وفي الوقت نفسِه هو أفضلُ من الطالب الذي كان يحاول الغشَّ ولم يستطعْ فرَسَب، فالذي نجحَ لا بدَّ أن له مقوماتِ النجاح، لكنه وجَّهها خطأ، فهو ناجح في شيء بطريقةٍ سلبية، إذًا فهو يستطيع تحقيقَ النجاح مبدئيًّا، فالمرأةُ تستطيع تحويل السلب إلى إيجاب، وتستطيع تحويلَ الشهوة إلى عطفٍ ولين؛ إذا كانت مهذبة. اسمعْ منّي أنا, إنَّ في

المرأةِ سلبيات كثيرة، لكننا لا نستطيع الاستغناءَ عن إيجابياتِها القليلة، واعلمْ أنه لا يُهْزَمُ رجلٌ عرفَ قدرَ نفسه, ولا تُهزَم امرأة احترمت ذاتها.

حازم: أيُّ أدب وأيُّ براءة وأيُّ رحمة تتحدث عنها!؟ إنَّ المرأة طفلةٌ خبيثة، امرأة لم تخنْ هي امرأةٌ لم تَحِض.

ازدادتِ الأزمة على حسام؛ فقد طُرد من عمله بسبب أنه لم يعدْ يستطيع القيامَ به, كما لاحظ أهلُه تصرفاتِه الغريبةَ كجمْع الورق والتبرُّز خارجَ دورةِ المياه، لكنَّهم لم يذهبوا به إلى دجال، بل ذُهِبَ به إلى مستشفى النفسية الحكومية، فأبوه غيرُ مستعدٍّ لدفع أموالٍ لمستشفى خاصة, وأول ما حكوا للطبيب عنْ أفعاله الغريبة استنتجَ أنه مريضُ فِصام، وسألهم: هل عندكم أحدٌ مريض في العائلة؟ ردَّت أمه قائلة: عمُّه وخاله. قال الطبيب في نفسه مازحًا، عمُّه وخاله! من الجيد أنه وُلِدَ برأسٍ أصلًا، فجيناته كانت مستعدَّة لهذا المرض، ثمَّ أمرَ بإيداعه في عنبر (أ) رجال، وفي داخلِ العنبر دارَ بين حسام وحازم مناقشةٌ حادَّة في الدين.

حازم: الدين أمرٌ باطل، فهوَ يدعو إلى الفشل، والدليلُ على ذلك أنَّ الدول العلمانية هي نفسها الدولُ المتقدمة، وأنا أحكمُ على الشيء من خلال مُتَّبِعِيه، فالفاسد سيتبع الفساد، والصالح سيتبع الصلاح، كذلك الناجح والفاشل.

حسام: لقد وقعتَ في مُغالطة منطقية، وهي جعْل ما ليس بعلَّةٍ علَّةً، فالسبب الحقيقي لنجاح الدول الملحدة وفشلِ الدول المتدينة هو أنَّ هؤلاء أخذوا بأسباب النجاح وهؤلاء لم يأخذوا بأسباب النجاح.

حازم: العرب أخذوا علومَنا وأنسونا تاريخنا وأعطونا عوضًا عنه علمَ اللغة العربية.

حسام: لقد كان العربُ المسلمون منهم العلماء والفصحاء وكانوا فطناء.

حازم: أتعدُّ معرفتَهم بلغتهم ذكاءً؟!

حسام: بل أعدُّ حكمتهم التي تتجلَّى في فصاحتهم ذكاءً، هذا وقد كان العرب فيهم علماء وفلاسفة، والكتبُ تشهد على ذلك، هذا عنِ العرب بعدَ الإسلام, أمَّا قبل الإسلام فكانوا جهالًا، فلو لم يكنِ العرب أميّين لَلَاحظوا أنَّ عبادة الإله (هُبَل) ما هي إلّا (هَبَل)؛ فجاء الإسلامُ وعلَّمهم, وأحلَّ لهم الطيبات وحرَّم عليهم الخبائث.

حازم: إنَّ الحرام والحلال يختلفان عن الأخلاق واللا أخلاق، فمثلًا شارب السجائر لا يضرُّ غيرَه ومع ذلك هي محرمة!

حسام: لكنْ, فيها ضررٌ للنَّفس؛ لذلك هي فعل لا أخلاقي.

حازم: لقد وقعتَ في الفخ, ونسيتَ أنَّ أغلب البشر مدخنون، وأنَّ الواقع العملي أثبت أن هناك مدخنين أخلاقيين.

حسام: في الأخلاق القياسُ للغالب، فخطأ واحدٌ لا يلزم أنَّ كلَّ الإنسان أخطاء، إنك لا تدرك القواعدَ الأساسية للفكر، ولستَ متفهمًا لعلم الدين, ومعَ ذلك تعارض!

حازم: وهل تسمّي الدينَ علمًا؟

حسام: لو كنتَ لا تعلمه فأنتَ بالتأكيد تجهله، إذًا فلوْ علمته صرتَ عالمًا به.

حازم: في زماننا صارَ الحقُّ باطلًا، والباطل حقًّا، والخطأ صوابًا، والصواب خطأً, وأصبح للدين الغلبة. نريد أن نميِّز بين الحقيقة وتصوُّرِنا عن الحقيقة والحقيقة نفسها. قد يكون العقل في حدِّ ذاته أداةً غيرَ دقيقة لمعرفة الحقيقة, فقد يكون هناك ما هو أعلى من العقل وهو ما يستطيع كشفَ الحقيقة, كما أن الحيوانات بالنسبة لنا غيرُ عاقلة, قد يكون قياسُ عقلنا غيرَ مُصيب بالنسبة للحقيقة, ولوْ وجد كائنٌ أعقلُ منّا لاتَّهَمَنا بأننا بعيدون عن الصواب.

حسام: صحِّح قولك, فلو كانَ الخطأ هو الصواب لمَا جاز وصفه بالخطأ؛ بل بالأحرى أنْ نصفَه بالصواب. ولو كان الصواب خطأً لمَا جاز وصفه بالصواب؛ بل بالأحرى أن نصفه باللاصواب. ولوِ افْترضنا جدلًا ما تقول فنحنُ البشر مقياسُنا العقلُ, والصوابُ عندنا هو صواب

العقل, ونتألم فعليًّا لمَا يراه العقل مصدرًا للألم, ونتوجَّع ممّا يراه العقل مصدرًا للوجع, وكذلك نسعدُ ونفرح, فبالتالي الأخلاقُ هي أخلاقٌ بالنسبة لنا, وهي نافعة بالنسبة لنا. إذًا لا مفرَّ من الأخلاق, أو لا داعي لإنكارها؛ فهي صالحةٌ بالنسبة لنا, ولو لم نفترض للجدل فمَن قال لك إنَّ العقلَ يعدُّ أداةً غيرَ عادلة للقياس! أنت تقيس العاقلَ على حيوانات لا عقل لها, بينما المفترض عندما تقول إنَّ هناك كائنات أعقلَ منّا تقيس على الزكي والأذكى. للأسف يعتقد البعض أنَّ الحقَّ ما هم عليه، وليس ما الصواب عليه.

حازم: لو أمسكنا بهاتفٍ جوّال, وجلستَ أمامي سترى الظهرَ وسأرى الوجه, هكذا الحقيقة. كلٌّ منّا يراها من زاوية.

حسام: لا, بل الحقيقة أنَّ هناك هاتفَ جوال بوجهٍ وظهر. الحقيقةُ في كمال الصورتين, ثمَّ الاستنباط, نستنبط من وجودِ الوجه والظهر أنَّ هذا هاتف جوال.

حازم: دعْني أقول لك يا صديقي إنَّ الأنبياء أردوا العُلا, وأرادوا مصلحتهم, فادَّعوا شيئًا وهُم ليسوا مؤهَّلين له, وما يثبتُ ذلك هو فشلُنا في الوقت الحالي عندما سرْنا وفقَ منهجهم.

حسام: الأنبياء عظماء. المشكلةُ في طريقة اتِّباع أتباعهم لهم, وأقربُ مثالٍ لنا هو الخليلُ إبراهيم؛ ذلك النبيُّ المفكر, فلو أرادوا أتباعهم بحقٍّ اتِّبَاعهم لتَبِعوا التحررَ العقلي والتفكرَ في كلِّ شيء.

حازم: إنَّني لا أطعنُ في الدين وفقط، بل أطعنُ في أصل الدين، البشرية تنزف لكنْ أين الإله؟ يبدو أنَّ يسوع أبانا تركنا كما تركَه أبوه, ثمَّ قلْ لي أينَ الشيطان؟ إنَّ مَن ابتكر فكرةَ الشيطان كان لا يعلم أنَّ العقل ينتج التفكيرَ السلبي كما ينتج التفكيرَ الإيجابي.

حسام: أمّا عن الشيطان، فما المانعُ من أن يكون هناك تفكيرٌ سلبي, وهناك وسواسٌ شيطاني!؟ ألَا تؤمن بتعدد العوامل؟ أمّا عن الله, فقد رأيت اللهَ في كلِّ شيء, هل مازلتَ تصرُّ على العناد؟

حازم: دعْكَ منّي, فلكلِّ واحدٍ منّا خرافاته، أنتَ عندك خرافةُ الدين، وأنا عندي خرافة العظمة، أشعرُ أنَّ الأرض لم ولنْ تنجبَ مثلي، أشعرُ أني الأفضلُ في كلِّ شيء حتَّى لو سبقني أحدُهم أشعرُ أني تركته شفقة.

حسام: وأنا أشعرُ أني الأقلُّ في كلِّ شيء، أشعرُ أني غيرُ موفَّق وغيرُ مرغوبٍ فيَّ رغمَ المجهودات التي أبذلها.

حازم: لأنَّك عبد، وتصرُّ على عبوديتك، لقد مضى زمنُ عبودية الإنسان للإنسان, وبقيتْ عبادةُ الإنسان للإله.

حسام: فهل ترى الكفرَ يعتق رقابنا؟

حازم: نعم, سيعتق الكفرُ رقابَنا من الوهم، فأنا لا أرى الإله، فإلى متى ستظلُّ تنظر للغلاف الجويِّ ظانًّا بأنَّ هناك إلهًا؟ قلْ ما شئت يا حسام، قلْ إنَّ الرسالة صاعدة نازلة، وليست نازلة، فقدْ صعدَ وعيُهم فنزلتِ الرسالة، والأنبياء هم علماءُ نفْس زمانهم، قلْ ما شئت؛ فالجوُّ بارد, والنارُ لم تعد حارقة. لا تقلْ لي كما قال علماءُ الكلام، إنَّه معنوي؛ فأنا لا أُؤمِن إلَّا بالمادة, ولو قلتَ لي إنَّه إلهٌ مادي لَلَزِم الحيِّز، وبذلك يكون قد قهرَه واحتاجَ إليه.

حسام: بل اللهُ ليس كمثله شيء، وقد خلقَ الشيء؛ أي الكائنات الحية، واللا شيء أي الفراغ لحاجةِ الشيء إلى اللا شيء، وليسَ لحاجتِه تعالى إليه، فاللهُ محيطٌ لا يحاط، وقولنا بأنه سبحانه محتاجٌ إلى حيّز نابعٌ من كوْننا نقيس على أنفسنا، فالحيزُ مخلوقٌ من مخلوقات الله، فما نظنُّه لا شيء هو في الحقيقة شيء، فلوْلا الفراغُ لاصطدمنا بعدم الفراغ.

حازم: أتعلم, لقد اقتنعتُ بوجود الله، لكن ليسَ بدليلك، لكنَّ دليلك هو الذي ألهمني, ودليلي هو في الكونِ أشياءُ معنوية, والمعنوي لا يكون لذاته، وإنما هو نابعٌ من شيء، كالحزن نابع من تفاعلاتٍ كيميائية، لذلك أستطيع أن أقولَ إنَّ الجاذبية أمرٌ معنوي نابعٌ من مادي، وهو الله, والدليلُ قوله في القرآن: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ..} فالإمساكُ هنا معنوي نابع من مادي، واللهُ ليس بحاجةٍ إلى حيّز، فهوَ والحيّز متساوقان زمانيًّا، فبوجوده نشأ الحيّز, فالحيّز

غيرُ مخلوق، وذلك لأنَّه ببساطة غيرُ مكوَّن من ذرات، وكوْنه مساوقًا لله لا يعني أنَّه إله مثله، فاللهُ قادر عليم, فهل الحيزُ قادرٌ عليم؟!

حسام: وما المانعُ من أن يكون له ذراتٌ لا نعرفها, أو لا نستطيع الكشفَ عنها في الوقت الحالي، ويكون بذلك دليلي هو الأصح؛ لأنَّ دليلي فيه تنزيهٌ لله, أمَّا دليلك فيجعلنا نقول بأن العالمَ أكبرُ من الله، لأنَّه قد تحيَّز في مكان, حتى لو لم يكنْ هناك حاجةٌ للحيِّز فهناك إشكالية، ونحنُ نقول في صلاتنا كلَّ يوم اللهُ أكبر.

حازم: اللهُ مادي لكنَّه غيرُ متجزئ، وهذا أمرٌ معقول لأنه لو متجزِّئ لاحْتاج لكلِّ جزء، وهذا غيرُ مقبول، وبذلك نكون أثبتْنا المعقول، وهذا هو المقصدُ من قول القرآن: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) أي أنه ليس مكوَّنًا من ذرات، أمَّا عن كون العالم أكبرَ منه فما المشكلة؟ فالإنسانُ صنع الآلات وهي أكبرُ منه حجمًا، لكنَّه أذكى منها، كذلك اللهُ أقوى وأقدر, وهو أكبرُ من أيِّ جُرم فردي، لكنْ إذا اجتمع العالمُ فهو أكبرُ منه؛ لأنَّ عقلي ببساطة لا يتصوَّر إلهًا أكبر من العالم، فكيف لكبيرٍ أن يكونَ في صغير؟!

حسام: يبدو أنَّ معرفة الله تكون عن طريق القلب لا العقل.

حازم: ورغمَ تأليفي لهذا الدليل، فمازال بداخلي شكٌّ في وجود الإله، فالكونُ في غاية العشوائية.

حسام: بل الكونُ في غاية النظام، ولا بدَّ له من صانع.

حازم: إنَّ العشوائي إذا ثبتَ على أمرٍ قالوا عنه نظام.

حسام: وهل العشوائي يستقر؟

حازم: نعم, إنه إذا استقرَّ على شيء سمّوه باسْم، وإذا استقرَّ على شيء آخر سمّوه باسْمٍ مُختلف، كالبرتقال واليوسفي؛ فالذرات عشوائية من الداخل مستقرَّة في الخارج.

حسام: أوَليس استقرارُها على نظام معيَّن دون تغيرٍ دليلًا على النظام؟

حازم: لكنّي مازال عندي بعضُ المشاكل مع الشرع.

حسام: مثل ماذا؟

حازم: الإسلامُ أهان المرأة؟

حسام: أأنت مَن يتحدَّث عن إهانة المرأة؟!

حازم: عندما أُهِينُ المرأة فأنا أنتقدُ أفعالها، لكنَّ المشكلة في أن يهينَ المرأة مَنْ خلقها.

حسام: حسنًا, دعني أقارنُ بين فكر الإلحاد وفكْر الإسلام من حيث تكريم المرأة. أنتَ كملحدٍ تعتقد أنَّ السيدة مريم– رضيَ الله عنها– لم تنجبْ عن طريق إلقاءِ روح الله فيها، إذًا فأنت تعتقد أنَّها قد وقعت في جريمةِ الزنا, وأنت نفسك ترى أغلبَ سكان العالم مسيحيّون، أي أنَّ امرأة خدعتِ العالم، فهل تأمنُ مكرَ المرأة أو تحبُّها بعدَ كلِّ هذا؟ ثمَّ انظر إلى الدين الإسلامي الذي يكرِّم السيدةَ مريم في آياته وأحاديثه, ويبرئها.

ارتبكَ حازم, ثمَّ قال: يقولون إنَّ الحمار ينهق عندما يكون هناك شيطان، لو كان الأمر كذلك لمَ كفَّ الحمار عن النهيق، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منّا قرينًا، ولو قلت لي إنَّه لا ينهق إلَّا عند رؤية إبليس، فقدْ أثبتَّ لإبليس مقامَ العظمة، حيث إنَّ هناك أكثرَ مِن حمار ينهقُ في نفس الوقت في أماكن مُختلفة، إذًا فإبليس في كلِّ مكان، فهذا من عادةِ الملحدين كلَّما هجموا في معركة واقتربت الخسارةُ منهم ابتكروا معركةً أخرى وتركوا الأولى.

حسام: ومِن أين جئتَ بمثل هذا الكلام؟ هذا الكلامُ لا أصلَ له في الدين, فقد يكون عادة.

حازم: بل هو في الدين.

حسام: لو افترضنا جدلًا أنَّه في الدين، وأنَّ هناك حديثًا نصّ عليه، فالحديث لا يشترط أن يكون صحيحًا حتَّى لو رواه أحدُ الصالحين، فرفضي للحديث لا يشترط فيه فسوقُ مَن قاله، فقد يكون صالحًا، لكنه وقعَ في مُغالطة الاحتكام إلى عامَّة الناس، وصدَّق ما يقوله الأغلبية، وبالتالي نقله صالحٌ عن صالح, ألا ترى أنَّ هناك علماء يؤمنون بخرافات لأنَّها سائدة!

حازم: إذا كانت الأحاديثُ غيرَ صحيحة، فمِن أين ستعرف أشياءَ أساسية في الدين كالصلاة مثلًا؟

حسام: القولُ خبري, والفعلُ متوارث؛ أي القولُ قد يصدق وقد يكذب، كالاحتكامِ للعامَّة الذي ذكرناها آنفًا، أمَّا الفعلُ فهو متوارَث عن النبي؛ لأنَّه عمادٌ من أعمدة الدين, فلا مجال للإشاعة فيه.

حازم: دعْك من الأحاديث, أنا أرى أنَّ القرآن غيرُ مُعجزٍ، فلو افترضنا جدلًا أنَّ فصاحته فاقت الفصحاء، فهذا يدلُّ على أنَّ مؤلِّفَه هو أفصحُ الفصحاء، ولا يلزم من ذلك كوْنه الإله؛ فالإله لا يتحدَّى فئةً صاحبةَ لغةٍ ويترك الفئاتِ المتحدثةَ بلغات مختلفة, ثمَّ يأمرهم بالإيمان بإعجازه.

حسام: ومَن قال لك إنَّه مُتحدٍّ به بالنسبة لهم في كلامه، فالقرآن مُعجِز في تشاريعه, ويلزم عن كلامِ الله الإعجاز، فهو قد نزلَ بالتشاريع المُعجزة للجميع، لكنَّ في السرد الذي حكي به, وشرع إعجازًا، ولمّا قال المشركون إنه مُفتَرًى؛ طالبَهم اللهُ أن يأتوا بمثله، فتحدِّي البشرِ لم يسبقْ قولهم بالافتراء.

حازم: لكنَّ آياتِ القرآن توضِّح بشريته، فمثلًا قوله يا أيها المدثر قم فأنذر، أمَّا لو قالَ قمْ فبشِّر، لكانتْ أفضل، أيضًا عندَك آياتٌ في القرآن تنصُّ على أنَّ الأرض أُغْرِقَتْ في عهد نوح وهو رسولٌ لقومه خاصَّة, وليسَ للبشر عامة.

حسام: بالنسبة لقولك لماذا قال اللهُ تعالى قمْ فأنذر، ولم يقلْ قمْ فبشِّر، هذا يرجع إلى أن الإنذارَ يخافه العقل, والتبشير يرغِّب العقل، لكنَّ المقام يقتضي الإنذارَ؛ فليست كلُّ العقول تستجيب للتَّبشير، والتبشير بدون تنذير لا يعدُّ ترغيبًا قويًّا، وإنذارهم إنقاذٌ لهم من جهنم؛ لأنَّهم كانوا على ضَلال، ففي الإنذار حثٌّ على ترْك الضلال لعدمِ دخول النار، وبالتالي دخول الجنة ففي إنذاره لهم تبشير. أمَّا عن قولك قومُ نوح خواصّ؛ فلِمَ أهلكَ العوام؟ فالقصة عندنا– نحن المسلمين– ليست تفصيلية، فنحن لا نعلمُ ما حالُ البشر حينها، ولا نعلم عددَهم، وبذلك تكونُ وقعتَ في مغالطةٍ منطقية وهي الاحتكامُ إلى الجهل، فبطلَ ما قلتَ وثبتَ خطأ إشكاليتك.

حازم: عندي دليلٌ آخر لبُطلان النبوة؛ أنَّ من يفعل شيئًا من أجل عظمته، يتمنى أن لا يسبقه أحدٌ في هذه العظمة، هذا يظهر في كوْنه خاتمَ المرسلين، أليس من حقِّنا في العصر الحديث أنْ يكون لنا نبي يرشدنا؟!

حسام: لمّا أوكلتِ الكتبُ السماوية السابقة للبَشر حرَّفوها، فتعهَّد اللهُ بحفظ القرآن، وبالتالي مع البشرِ رسولٌ نذير وبشيرٌ لآخر الزمان؛ وهو القرآن، فما فائدة نبيٍّ جديد والقرآنُ موجود؟ والله لا يفعلُ شيئًا عبثًا، فبطلَ قولُك وثبتَ الضِّد.

حازم: بدأتُ أقتنع, لكنْ قلْ لي كيف أسيرُ مستقيمًا والطريق معوَّجٌ؟!

حسام: غيِّر طريقك، غيِّر طريقَ الإلحاد يا حازم، ثمَّ أثنى حسام على الله قائلًا.. اللهمَّ إنَّ حبك ينيرُ قلبي، فاجعلْ فؤادي ينيرُ بصيرتي، أشكرُك فقدْ أنعمت عليّ بالوجود، وأهابك لأنك قويّ، وآمَنُكَ لأنَّك رحيم، وأحبُّ نفسي لأنَّك خالقها، وأحبُّ العالم لأنك موجِدُه، عندما أنظرُ إلى أعلى أتذكَّرك يا أعلى، وعندما أنظرُ إلى الأسفل أَتَذَكَّرُ خَالقَ الأرضِ الأَعْلَى، أراك في كل حين، أراكَ محبةً تطفئ الكرهَ بداخلنا، أراك نورًا تطفئ الظُّلمة، أراك طاقةً إيجابية، تجعلنا ننهض، صرتُ معكَ يا الله فحاربتُ الشيطان، فاللهمّ أعنّي وساعدني في هدايةِ الضّالين، فأنا صرتُ أتمنّى أن أكون شيخًا وقسًّا وحاخامًا, حتَّى أكون خيرَ ناصح لكلِّ الطوائف.

****

مناقشة وتحليل

وبعدَ مرورِ أسابيع من دخول (بليغ) المستشفى، أجرى الأطباءُ للمرضى إجراءً طبيًّا يعرف بالمُتابعة، فلمّا تابعت الدكتورة وفاء حالةَ (بليغ) اكتشفت أنَّه ليس بمريض، فأمرت بخروجه كي لا يؤثِّر وجودُه على نفسيته، ولأنَّ هذا ليس مكانه، خرجَ (بليغ) من المشفى، ورفع على الدكتور وإخوته قضية, وقد حكمتِ القضيةُ لصالحه. أدخل حسام المستشفى امرأة, وأخرج (بليغ) من المستشفى امرأة، وأدخل (بليغ) المستشفى رجال، وأدخل أغلب المرضى المستشفى نساء، فالأمرُ ليس له علاقةٌ بالنوع، المشكلة فينا نحن الجنسُ البشري. أمَّا عن حسام, فبعدَ عدةِ شهور خرج مِن المستشفى، وقد شُفي، لكنَّ شفاءه لم يكن شفاء كاملًا، فهذا المرضُ لا يشفى منه المريض شفاءً كاملًا، أمَّا بالنَّسبة لسلمى فقد تابتْ إلى الله, ورجعتْ عن أفكارها الشريرة بعدَ أن تزوجت علاء، لكنْ علاء أرهقَها كثيرًا لأنَّه منحرفٌ، ومازال مراهقًا، وفوقَ كلِّ ذلك تنقصه الحكمة لأنَّه صغيرُ السِّن، والمصيبةُ الكبرى أنَّ أباه كان يساعدُه في الإنفاق على سلمى؛ لأنَّه مازال صغيرًا، فكانَ يتحكَّم في قراراتهم، وهذا كان يزعجُ سلمى، فهل تستحقُّ سلمى الزواجَ من شابٍّ منحرف كعلاء بعدَ توبتها؟!

إمّا أنَّ علاء ابتلاءٌ لها, والمطلوب منها أنْ تصبر؟ وهل توبةُ سلمى صادقة؟ أم أنها شبعت من الشَّهوات فتابَت؟ وهل فعلًا مِن الممكن تغيير الخلق, أم أنَّ الخلق ثابت, والإنسان هو مَن يتلوَّن؟ وما ذنبُ حسام في كوْنها تابتْ بعدَ أن دمَّرت قلبه؟ وما ذنبُ حكيم.. هل الإنسانية لعنة؟ وما الحكمةُ ممّا حدث لإسماعيل وعصام؟

في الحقيقة احترتُ كثيرًا بين أنْ أترك للقارئ التفكيرَ وبينَ أن أجيب، فهداني اللهُ إلى الثانية خوفًا من أن يضلَّ أحدٌ عن الصواب، والإجابة هي أنَّ سلمى تستحقُّ الزواج من علاء؛ لأنه لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا؛ وهو ابتلاءٌ لتكفير ذنوبِها السابقة، فإذا غفر اللهُ لها كلَّ ذنوبها ألهمَ حينها علاء بالتوبة، كما ألهمَها بالتوبة. وتوبةُ سلمى صادقة, والقرينة أنها رجعت عن أفكارها

الشِّريرة، وليسَ لأنها شبعتْ من الشهوة؛ فالشهواتُ لا يُشْبَعُ منها لأنها غريزة، وإنما تقاوم. وأخلاقُ الإنسان تتغيَّر لأنه مريدٌ, أمّا بالنسبة للسؤال الأخير وهوَ ما ذنبُ حسام أنْ تابت بعدَ أن دمَّرت قلبه؟ في واقعِ الأمر, هذا تفضُّل مِن الله عليه؛ لأنَّه مستعدٌّ جينيًّا للمرض، ولو لم تكن سلمى سببًا في مرضِه في بدايةِ عمره، لكانَ غيرها سببًا في مرضِه في نهاية عمره، وهذا أصعبُ حيث إنها دمَّرت أسرة عندما كان صغيرًا، لكنْ وهو كبيرٌ ستتدمَّر أسرتان، ومرضه وهو صغيرٌ غير لافتٍ لنظر الناس، فيستطيع أن يرجعَ لحياته الطبيعية، ويعاشرَ الناس، أما إنْ مرضَ وهو كبيرٌ سيكون محطَّ لفتِ نظرِ الناسِ، وسيبتعدُ عنه الناس طوالَ عمرِهِ خوفًا منه، وسيفتضح أمرُه وتسوء سمعته؛ لذلك وجبَ عليه أن يحمدَ الله, وما عنْ حكيم فقد شفي بعد مرضٍ ليتعلم درسًا؛ وهو عدمُ المبالغة في الحزن مهْما حدث, فطالما هناك نفَسٌ فهناك أملٌ؛ فالحياةُ لا تتوقَّف على أحد, وأمّا عن عصام فعليه أيضًا أنْ يرضى فقدْ وهبَ لها حبًّا, ووهبتْ له نضجًا, وبالنسبة لإسماعيل؛ فالحياةُ ليست سيئة بهذا القدر لتزني أمُّه وزوجته, فإسماعيل مريضٌ وعندَه ضلالاتٌ, ما يزعجني قولُ الناس على المرضى النفسيّين أنَّهم مرضى عقليّون, إنَّ المريض النفسي لَهو مريضٌ نفسيّ لا عقليّ، والجنون خيرٌ من الجهل، فالمجنونُ قد تخرج منْه فلتاتٌ فيها حِكَمٌ، أمّا الجاهل فلا ينطق إلَّا جهلًا، المجنونُ يعرفه الناس ويحترسونَ منه، أمّا الجاهلُ فكلُّ كلامه جَهل. وقد يتصوَّر البعضُ أنَّ ما قاله علم، فهُم جاهلون بجهله، المريض النَّفسي علاجُه أقراص, أمّا الجاهل فعلاجُه التعلّم، وأغلبُ الناس بحاجةٍ للتعلم لا للأقراص، مَن يخرجُ عن القطيع سيسيرُ في طرقٍ مختلفةٍ عنهم، سيترك الراحة, ولنْ يكفَّ عن التفكير، وعندما يصلُ إلى أقصى مراحلِ الوعي سيكتشف أنَّ السعادة نتيجةٌ وليست مقدمة، وسيُفَاجَأُ بأن الطريق الذي كان يسيرُ فيه يُخرجه إلى طريقٍ آخر، وعندما يسيرُ إلى الطريق الآخر سيجدُ نفسَه قد سبقَ القطيع، وهُم يسيرونَ خلفه. إنَّ مَن يتخلَّفون عن القطيع لَهُمُ القادةُ, على الإنسان أنْ يكفَّ عن الاتِّباع, أنْ يكفَّ عن الخمول, أنْ يكفَّ عن انتظار إجابةِ الدعاء وهوَ جالس, أريد أن أقول لكم إنَّ الدعاء ليس كافيًا لنجاحكم، فعندما تمنَّى المسلمون النصرَ قال لهم الله: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} فاستجابةُ الدعاء بأيديكم، قاتلوا

اليأسَ كي تُشْفَى صدورُ قومٍ متألمينَ، ساعدوا أنفسكم, ولا تنتظروا المساعدة من أحد، أصلحوا أنفسَكم ولا تنتظروا الإصلاحَ من أحد، لا أقول لك أصلحْ نفسَك وفقط، بل أصلحْ نفسَك وساعد غيرَك على إصلاح نفسِه؛ لأنَّك إن تركته سيفسدُ عليك إصلاحَك لنفسك. يحاول البعض دفنَ جسدي في الأسفل وينسى أنَّ وعيي في الأعلى، ضعوا هذه الكلامَ نصبَ أعينكم, كلُّ تكرار يولِّد الأحزان, باستثناء تكرارِ النجاح, ابتعدوا عن الأصدقاء السلبيّين, وأصدقاء المصلحة؛ هم دائمًا يحاولون الابتعادَ عنكم، إلَّا أنكم دائمًا ما تقتربون منهم، لذلك هُيِّئَ لكم أنهم يقتربون منكم، وأنَّكم مقرَّبون إليهم لمجرَّد أنكم بالقربِ منهم، أنتم تستحقونَ مرافقة أنفسكم، وهي متعة إنْ أحببتموها، فالبشرُ غادرون، فلا يأتي البعدُ إلَّا من قريب, ولا تأتي الخيانةُ إلَّا مِن مؤتمَن, ولا يأتي الغدر إلَّا مِن حبيب. سرعان ما يتحوَّل الحبُّ إلى كره، سرعان ما يتحوَّل الحلو إلى مُر، سرعانَ ما يتحول الصديقُ إلى عدو. والحكمة قرار، والقوة لحفظ النفس والأخلاق توظيف حسن للعقل، وإعمالُ العقل فريضة إنسانية، والشهوةُ فريضة حيوانية، ونحن بشرٌ، بداخل كلِّ واحدٍ منّا حيوان، فافعلوا الشهوة بعقل ووظِّفوها بحكمة.

أقولُ لكم.. ارتقوا, فمَن ارتقى فلنفسِه، أمّا الخاملون الذين لم يكلِّفوا أنفسهم عناءَ التطور فستدهسُهم عجلةُ التطور. الصراخ بحماسة, وإشعال الطاقة بالإرادة؛ طاقتانِ لا تفرطوا فيهما. على مَن يريد النجاح أنْ يعي أنَّ طريقَ النجاح بطعْم النجاح, لكنَّ الطريق وَعِر, كما أنه على الإنسان ألّا يبالغ في مثاليتِه لأنَّه سيبقى بشرًا في كلِّ الأحوال, ولا يدَّعي رفعةَ طينه؛ فهو بالنهاية طين, منه وإليه, ولا يدَّعي العصمة على كلِّ حال, فلو أنَّه أثبتَ عصمته– وهذا لن يكون– لصلَّيت عليه بعدَ كلِّ تشهد, وسلَّمت. أريد أن أقول لأمَّة نائمة إنَّ الوسط ليس هو الخير دائمًا؛ فالتوسُّط والوعي والذكاء والمستوى الدراسي ليسَ هو الخير, فلا أتَّفق مع مَن عمَّم الوسطية, فلو توسَّطت في كلِّ شيء لمَا وصلت لقمة أيِّ شيء. أكسبنا الوعي معارفَ, وخسرنا مِن الجهل معاني. لقد صرتُ أنزعجُ من الخير كانْزعاجي من الشرِّ إذْ أنَّ الخير خيرٌ من الشرِّ لكنَّه في ذات الوقت ليس خيرًا خالصًا. تحرّكُنا الدوافع والمصالح والأهواء في كلِّ مرَّة أمزِّق أوراقي لسوء الخطِّ, أو للتكتُّم؛ ففي نوفمبر الماضي قمتُ بتمزيق دفتر اعترافاتي, وأحرقت

أوراقي, واكتشفت بعدَها أنَّ روحي في الكتابة والتدوين, ثمَّ عاودت الكتابة من جديد بعدَ كلِّ ما أحرقتُه من ذكريات الطفولة لعلّي أعيدُ كتابته مرَّة أخرى. كومةٌ من الخيبات, عشراتُ الأقلام جفَّت أحبارُها من أجل الخروج من الظلمة, أفرغتُ كومةً من الأوراق تعدَّت ألفيْ ورقة. ألفَا ورقةٍ هي حصيلةُ الخيبات, وتراكمات الظلمة التي عشتها, ولأنِّي وجدتُ الراحة والسلام في التدوين, ثمَّ بينَ غياهبِ الظلمة وجدتُ سعادةَ العالم تغمرني, لوهلةٍ كلُّ الأحزانِ بدتْ كسراب, كلُّ الظلمة تبدَّدت. أحرق كلَّ أوراقي ودفاتري القديمة, كانت نيرانها كضوءٍ فيه دفء ونورٌ لدرب جديد بعد بردٍ دامَ في صدري طويلًا. أمّا هذه المرَّة فقرَّرت البوحَ, أروحُنا توّاقة إلى الفرح والابتهاج والسلام يا الله, فأرحْنا بكرمك وجودِك ورحمتِك, يا الله إنَّك تغضبُ[2] من خطاياي أمَا آنَ الأوان أنْ تحزن لحُزني! لماذا عندما أفعلُ خطيئة تغضبُ ويكون من حقِّك الغضب؟ لماذا؟ ولماذا عندما أحزن لا تحزن مِن أجلي؟! أهذا لأنّي شيء لا يُذكَر! إذا لماذا غضبتَ منّي وأنا شيء لا يُذكَر؟! آسف.. لعلّي أمزِّق ما كتبتُ بسبب السطور الأخيرة.

[2] - الله لا يغضب ولا يحزن بهذه الكيفية, ولكن اللفظ هنا للمجاز.